د. عبد الجليل مرتاض

مباحث لغوية في ضوء الفكر اللساني الحديث

ثالة
THALA EDITIONS

د. عبد الجليل مرتاض

مباحث لغوية في ضوء
الفكر اللساني الحديث

ثالة
THALA EDITIONS

© حقوق النشر محفوظة لمنشورات ثالة 2003.

الإيداع القانوني : 2003 -436
ردمك : 1 -43 - 905 -9961
منشورات ثالة، الأبيار، الجزائر العاصمة.

مقدمة

رب يسر، وأعن بلطفك..

وبعد :

هذه المباحث والآراء اللغوية المتداخلة قدمًا وجـــدة، أصالـــة وحداثة في واقع الأمر ،كانت قد هيئت منذ عشرية كاملة قبل نهاية هذا القرن الذي بدأ يلوح لنا بآخر دورة من دورات رحاه.

وكان يفترض فيه مبدئيًا أن تكون في بداية القسم الثاني مـــن أطروحتنا في الدكتوراه التي نوقشت منذ ست ســـنوات، ولكنـــي قدرت في نهاية الأمر أنها مباحث وآراء ونظريات لسانية غريبـــة بعض الغرابة عن جوهر موضوعنا (دراسات سانتكسية للـــهجات العربية القديمة) مادة، ومنهجاً ؛ على الرغم من إثبـــاتي لثلاثـــة مباحث تصدرت ذلك الموضوع، لكونها متداخلة فـــي انســـجامها بشكل عام مع هذه المباحث.

وبعد تردد وتذبذب طويلين، ارتأيت أن أطبعها دون تنقيح فـــي النقص ولا في الزيادة.

ولعل المتلقي الذي يقدّر له أن يطلع على بعـــض أعمالنـــا الأخرى إن قدر لها أن تـــرى النـــور، فإنـــه ســـيلاحظ بعـــض التداخلات أو التقاطعات في هذه الدراسة المتواضعة يحق لنا حتى

في بعض النصوص، بل ربما سيقف على أن ندعي بأن البحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية غير قار ولا ثابت، ولو كان الأمر كذلك ، لكسرت الأقلام، وعطلت العقول، وجمدت البحوث، وأخلدت الأجيال اللاحقة إلى الراحة والكسل.

ولما كان الجيل الواحد قد يكون أجيالاً في نفسه وزمنه وعقله وتطوره، فليس من العيب إطلاقًا أن يتداخل أو حتى يتناقض الباحث في فترة قصيرة أو طويلة مع نفسه أسوة بتداخله وتناقضه مع باحثين آخرين سبقوه أو اعتقبوه.

فالعيب كل العيب أن يظل الباحث جامدًا متعصبًا أو مغرورًا بكيت وكيت، مع أن الحقيقة في الحركة الدائبة ونُشْدانها في السماحة والتفتح على الرأي المخالف، حتى ولو كان هذا الرأي المخالف نابعًا من موقف الباحث نفسه.

تلمسان، في 20-11-1999

د. عبد الجليل مرتاض
جامعة تلمسان

البَابُ الأَوَّلُ

وقائع سياسية في العربية القديمة

1

شفوية التراكيب السانتكسية في العربية

باختصار، نريد أن نبيّن بأنه خلال جمع اللغة العربية من البوادي الجبلية والمناطق الصحراوية، فإن جماع اللغة، كانوا يحددون بكيفية صارمة المناطق الجغرافية لهذا الجمع، لم يجمعوا اللغة العربية إلا انطلاقًا من لهجة جماعة ذات جبلة أو سليقة غير مطعون في فصاحتها.

إذا وجدت هناك جرأة من أحد جماع اللغة أو اللسانيين بالمصطلح العام لقبول كلمة أو تعبير لهجي معزول أي خارج هذه المناطق الجغرافية اللسانية، فإن ذلك كان يرجع إلى محاولة إيجاد مخرج أو مصدر لظاهرة سانتكسية لعدم وجود مصدر آخر في تلك المناطق الجغرافية اللسانية المثالية.

إن اللهجات العربية كانت غالبًا مرة مهمّشة وتارة مهجورة أو منبوذة من قبل لسانيينا القدماء لأسباب معيارية أكثر منها

لسانية، لأن هؤلاء الذين يمثلون الطبقة اللسانية الأولى كان يستحوذ عليهم العامل الديني المرتبط بوجه خاص بالقرآن الكريم وقراءته وتفسيره واستخراج شتى أنواع الأحكام منه ؛ فهؤلاء وجدوا أنفسهم مباشرة أو بوقت قصير بعد تدوين القرآن الكريم. أكثر من هذا أن نشأة هذه الدراسات اللغوية عند العرب مرتبطة بأحد الخلفاء الراشدين الإمام علي أو أبي الأسود الدؤلي الذي باشر في سنّ ضوابط للمصحف بنقاط حلت فيما بعد محلها حركات العربي بينما غيرت وظائف هذه النقاط الدؤلية لتصير دالة على الإعجام ولو أن هذه القضية لم تكن إلا مشروعا تمهيديا، لكن مع هذا يجب أن يعترف بدون أية مبالغة بأن هذه الخطوة كانت بحق رائدة ليست فقط للدرس النحوي بل للدراسات اللغوية العربية قاطبة، وكما كان متوقعًا وفق أي منهج معياري دقيق، فإن هذا النحوي العربي الأول لم يذكر التركيب اللغوي وفق بُناه المتعددة والنهائية وغير النهائية، لكنه ذكر ذلك حسب المستوى التقليدي أو الظاهري لتلك التراكيب القليلة والقصيرة والتي يُفترض فيها أنها منسوبة إليه بناء على البنى النحوية المرجحة بقوة إليه، لكن يمكن القول من بعض الوجوه بأن هذه الخطوة التي أعتبرها عملاقة، لئن لم تذكر هذه البنى العميقة بكيفية مباشرة فإنها عبرت عنها بواسطة الأشكال والظواهر من خلال البنى السطحية، ذلك أن إعراب لغة متصرفة، كما هو حال العربية في حد ذاته مؤسس من الداخل على تحليل سانتكسي بشكل ما، لأنه في وجهة نظرنا، فإن الهدف الأسمى في أي تحليل لغوي أو تقعيد لقاعدة هو أن نميز بين شكل أو تركيب سانتكسي أنتج سلفًا ثم تُلُقِيَّ لاحقًا كبنية اكتسبت هويتها في الذاكرة الجماعية

أو الشعبية بحيث أضحت هي نفسها ملتزمة بذلك العقد المتجسد في القوانين النحوية وأساليب الخطاب الدلالية، وبين تراكيب سانتكسية لم تتحقق بعد أولم تزل في خطابات اعتباطية لم يقع عليها التواضع أو الاصطلاح.

وبعبارة أخرى، ينبغي أن يميز :

1. بين ما هو منتسب إلى الكلام.
2. بين ما هو منتسب إلى اللغة.
3. بين ما هو منتسب إلى اللسان.
4. بين ما هو مرتبط بخطاب خاص وخطاب عام.
5. بين ما هو تركيب لهجي محلي وتركيب لغوي موحدّ (Standard) أو تركيب أكثر أو اعم شيوعًا من الآخر.

إن الخطوة الأولى في البحث اللغوي العربي أدركت بصورة تنمّ بنفسها عن نفسها تكرارية (Récurcivité) الظاهرة اللغوية وافترضت بشكل واعٍ نهاية الجمل الأصلية أو النواتية تاركة القياس للمتكلم لإنتاج صيغ وجمل أخرى خاضعة للعلاقات الممكنة الكامنة في ذلك الترابط المتضامن بين كافة عناصر هذا التركيب أو ذاك في مستوييه : النحوي والدلالي بناء على كفاءة هذا المتكلم البديهية أو السليقية وعادات أدائه وتواصله من الداخل (من نفسه) ومع الخارج (مع غيره من المتلقين) ؛ هذا فضلاً عن مستويات أخرى مثل المستوى المورفولوجي والصوتي أو الفونتيكي والفونولوجي أو الصوتي الوظيفي.

ونشير إلى أن الدرس اللغوي عند العرب كان من الطبيعي أن ينطلق في بدايته من التراكيب والقوالب اللغوية الثابتة أو الموحدة، ونتيجة لذلك وعوامل أخرى، غالبا ما بقيت التراكيب اللهجية مزدراة إلى درجة الزعم بأن القرآن الكريم كوحي إلهي وككلام مقدس قد عمل على وقاية تراكيب لهجية عربية عديدة أكثر مما وقاها لسانيونا أنفسهم، وذلك بفضل قراءاته المتعددة المرخصة بالحديث الشريف المشهور (أنزل القرآن على سبعة أحرف).

أما هذا الإهمال أو شبهه من قبل لغوييننا القدماء على الرغم من أن النص القرآني لا يخلو من عشرات الأشكال اللهجية فإن الدراسات المنجزة في حقل الفقلغة (فقه اللغة) العربية كانت مع الأسف مجردة من علم لهجات مستقل.

ينجم عن هذا أن الفضاء الديالكتولوجي (Dialectologie) في العالم العربي لم يكن ثريا ولا مؤسسا على قاعدة لسانية علمية تفرق بين ما هو علمي مخبري وبين ما هو عاطفي أو جهوي حتى أصبح الخوض اليوم في هذا الموضوع أقرب في مفهوم البعض إلى إشكالية سياسية منه إلى إشكالية لغوية واقعية وطبيعية في الآن ذاته، مما جعل أجانب عن هذا الفضاء يلاحظون هذا الفراغ الهائل فيتسابقون إلى سبره ودراسته بتعبيرهم عنا لا بتعبيرنا عن ذواتنا ؛ حتى إنه ليمكن القول بأن القراء كانوا أكثر واقعية مع هذه الأنماط اللهجية من الفقلغيين (فقهاء اللغة) أنفسهم، ولذلك لا يعجب المتتبع إذا لا حظ إحالات على مصادر مستقاة من القراءات القرآنية، حين يكون البحث متصلا بمثل هذه الحقول.

إن الوثائق الخاصة بهذا الحقل نادرة جـــدًا، وذلـــك دون أن نتجاهل الأعمال التي أنجزت إلى يومنا هذا من عدة باحثين فـــي العالم العربي وحتى خارجه، ولا سيما تلك التي أثارت مســـائل لهجية مهمة وجادة. وعلى العكس من هذا، فإن اللهجات العربيـــة القديمة لم تدرس بعد دراسة مستقلة على المســـتوى السانتكســـي مثلا، ولتجسيد هذه التصورات فعليًا، كان لزامًا على الـــدارس أن يقرأ ويراجع كل الوثائق المادية لهذا الصنف من التعبير الذي ظل طوال قرون خلت مثل كنز منسي أو موضوعي مقدس لا يخرق.

وللحصول على عدة مدونات أساسية يجب علينا أن نؤســـس عملنا على المدونات القديمة من نصوص لغوية وأدبية وروايـــات شفوية سجلها العلماء نقلاً عن أفواه الأعـــراب،... إلـــى جـــانب القراءات القرآنية وكتب التفسير والتي لا تزال تتضمن جمـــلاً أو تراكيب تنم عن فوارق لهجية في كـــل المســـتويات، والنمـــاذج المعزوة إلى أقوام بأعيانهم تمكننا من وضع دراسة تحليليـــة قـــد تكون ذات مقاربات جديدة من حيث الجمع والحصـــر. وهـــذا لا ينفي أن يعترف الدارس بتلك الالتفاتات المبثوثة في مصادر أدبية ولغوية ونقدية من بعض الدارسين القدماء، والتي لا تنكر بأنـــها إرهاصات أولية لعلم لهجات حقيقي.

وحين نشير إلى المدونات الرسمية فإن هذا الإطـــرق ليـــس جامعًا مانعًا ولا يقوم لنا حجـــة صارمـــة لاســـتبعاد نصـــوص أوتعابير عتيقة (archaïques) إننا واعون بوجود تسلسل منطقي بيـــن هذه التعابير والمستوى الدلالي، وبعبارة أخرى هناك نـــوع مـــن

العلاقات الفضائية بين أمثال شعبية وأكثر من هذا، فإن الدراسات الأنثروبولوجية التي ظهرت حديثًا هنا وهنـــاك ولا ســيما فـــي روسية برهنت بأن الأمثال الشعبية الأقـــرب صلـــة باللـــهجات المحلية للشعوب وخاصة تلك التي تعتمد التواصـــلات الشـــفوية أسلوبًا ونهجًا في حياتها وعاداتها، لا تعرف إلا قانوناً واحدًا هـــو قانون الطبيعة، هذا القانون يسمح لها بالعبور طليقة في فضـــاء مشترك بين عدة مجموعات من هنا إلى هناك ومن هناك إلى هنا.

إن الخصائص البنيوية للهجات العربية القديمة لا تشكل فقـط لغة العرب الصحراوية، لكنها تمثل كذلك كنه مجموعـــة اللغـــة الشفوية المتواضع عليها عموماً بين كل المجموعـــات اللســـانية العربية، دون الأخذ بعين الاعتبار، طبعًا، الحدود الجغرافية أو أية عوامل أخرى أيًّا كانت، والتي لم يكن لها أي اســتطاعة لســـانية مطلقة لمنع التيار اللغوي ليجوب أو يخرق هذه العوامل الوهميـــة المتعلقة بقوم أو عشيرة أكثر مما هي متصلة بحركة لسانية شفوية لا حدود لفضائها.

على الرغم من الظروف الوقتية والتي كانت فـــي مجملـــها قاسية بين المجتمع العربي الجاهلي، فإنه في المقابل لم يكن بوسع هذه القبيلة أو تلك أن تخلق تعبيرًا مختلفًا جوهريًا عن تلك اللغـــة العفوية المشتركة التي كانت تعتبر كإرث جماعي، لكن التباينـــات كانت تقوم غالبًا في طرق التواصل ككلام فردي غـــير خـــاضع للمراقبة بكيفية صارمة، وهذا شيء طبيعي في بيئة تعيش علـــى طبيعتها وعفويتها، ومن هنا نرى انه من الأنسب أن يُتحرى كـــل

التعابير الممكنة التي كانت القبائل العربية معتادة على التلفظ بـــها لكن على نحو مختلف على المستوى السانتكسي.

من حيث المبدأ، فإننا نعتقد بأن اللهجات العربية القديمة فـــي حد ذاتها وعلى تباينها هي اللغة العربية الفصحى نفسها والتـــي تشكّل الأساس للعربية الشفوية لقاطني الحضر كساكني الباديـــة، خاصّة وأنّ القرآن حوّلها حالاً إلى لغة مكتوبة منذ عهد النبيﷺ .

إن وجود أشكال لهجية باعتبارها لغة منطوقة والتي لها معايير نوعية مقابل اللغة العامة، لا يستطيع دارس مهتم بـــالموضوع أن يردها،وذلك منذ ظهور بعض الأنماط اللســـانية التـــي شـــرعت تفرض وجودها وسط الحقل المعني حيث كان اللسانيون العـــرب القدماء يمارسون بقسوة أشغالهم في علوم اللغة، لكن هذه الأشـكال اللهجية المنشقة مثلما كـــانت عقبـــات أمـــام هـــؤلاء اللســـانيين المتصلبين،فإنها كانت في الآن ذاته نبراسًا كثـــيرًا مـــا أضـــاء الطريق لقراء القرآن بوجه خاص، فضلا عن ذلك أنها وجـــهت اللسانيين أنفسهم حيث منحتهم معلومات لا يستهان بها فيما يخص بعض التخريجات اللغوية عمومًا منها والسانتكسية خصوصًا.

بين السانتكس التقليدي والمعاصر

إننا لا نريد أن نتعمق في تعريف السانتكس في هذا الجزء من عملنا، لأنه من غير المنطق بالنسبة للسانيات العامة وبالنسبة لموضوع السانتكس أو مصطلحه أن نعرّف هذا المصطلح بمعزل عن تعريف الجملة التي تعد روحه والنقطة المركزية التي تدور عليها أعمال أي سانتكس ؛ ثم إنَّهُ شتان ما بين تعريف قديم أو وسيط وبين تعريف حديث أو معاص.

وحتى لا نترك هذا المصطلح موضوعًا لتساؤلات متتبع هذا العمل فإنه لا بأس أن نستعرض ــ ولو سطحيًا ــ بعض هذه التعاريف المجمع على عالميتها، منها أن «السانتكس (Syntaxe) للسان (langue) هي مجموعة الوسائل التي تمكّننا من تنظيم الأقوال (أو الملفوظات) (les énoncés) لإناطة كل كلمة وظيفة ولتعيين العلاقات التي تستقر بين الكلمات إن ترتيب الكلمات (l'ordre des mots) هو أحد المميزات لكل سانتكس : إن الدور

يكون أكثر أو أقل أهمية حسب كون اللغة متصرفة (Flexionnelle) (تتضمن علامات إعرابية تقوم ببيان العلاقات) أو بالعكس تحليلية (analytique) (ليس لها علامات إعراب ؛ إن ترتيب الكلمات في اللاتينية كان أكثر مرونة، وهو في الفرنسية بالأحرى متصلب»[1].

وإذا اعتبرنا السانتكس بمقابل ما كان يعرف تقليديًا بعلم النحو قديمًا عند العرب والأجانب وإلى وقت قريب جدًا لدى اللسانيين لمحدثين فإنه من الممكن أن نورد له تعريفًا آخر مشابهًا للأول، بحيث إن «نحو لسان (langue) أيًّا كان يمكن أن يُتصور كنظام من القواعد التي تقابل تمثلا دلاليًا وتمثلاً صوتيا لجمل هذا اللسان ؛ هذان التمثلان معطيان مبدئيًا في كلمات هذين النظامين العاميّن (universels) مستقلين عن ألسن خاصة : نظام التمثل الصوتي المقترح بأسلوب تشومسكي وهال (Halle) (1968) ونظام التمثل الدلالي، والذي طبيعته، كما يعرف كل واحد، لا يبرح مجهولا بكثرة، إن النحو يحدد من جهة أخرى، مجموعة لا متناهية للبنى السطحية الأحسن تشكيلاً والتي تُحول إلى تمثيلات صوتية بواسطة نظام من القواعد الفونولوجية، إنّ النحو يحتوي كذلك على مجموعة من قواعد التحويل،... قواعد التحويل هذه خاضعة لمختلف القيود، بعضها عامّة (universel) وأخراها مخصّصة لقواعد كل نحو على حدة»[2].

على أي حال، فإن السانتكس التقليدي كان ينطلق من معالجة قياسية أو عدم قياسية الجمل أو التراكيب المحكية كأشكال غير

---

1. Maruna Yaguello, *Pour comprendre la linguistique*, éd du Seuil, p. 19.
2. Nicolas Ruwet, *Théorie syntaxique*, éd du Seuil,1972, p. 13.

مؤكدة بين المتكلمين غير السليقيين (non natifs) لكنـــها ليســت بمعزل عن المتكلمين السليقيين (les locuteurs natifs) الذين يفترض فيهم أنهم يمثلون المعطيات الجوهرية الحقيقية للخطابات المحكيــة أو المروية عن الأجداد أو الأسلاف أنفسهم وفق كفـــاءة لســانية مثالية وأداءٍ مصاحب لها، وذلك دون استبعاد الذهنيـــة العربيــة البدوية لهذه الفترة قبل جمع اللغة العربية وتدوينها في الســطور نقلاً عن الصدور.

إن الذهنية العربية لهذه الفترة الشفوية كانت تتميز بعادة عفوية قائمة على التقليد، لكنه تقليد فاعل، وليس تقليدا متحجـــرا، كمــا كانت في الآن ذاته معجبة أيما إعجـــاب بـــأخلاق وتصرفـــات الأسلاف مهما كانت تلك العادات، حتى أن القرآن الكريم وصفـهم بقوله : «إنا وجدنا آباءنا كذلك يفعلون».

ربما من أجل هذا، أي من أجل الاحترام المطلـــق للســلوك الموروث فإن السانتكس التقليدي كان يفترض قبل أي شيء وجود جمل غير قياسية أو غير تامة، والتي كانت تفسر انطلاقـــا مـــن نماذج أو قوالب أكثر قياسية أو أساسية، هكذا، في الإغريقية :

(Anthropos Trekhei) أي الرجل يعدو، كانت (الجملة) تعتــبر كشكل أساسي (Anthropos Trekhon esti) أي الرجـــل جـــار أو متسابق أو (l'homme est un coureur) أي الرجـــل عـــداء، تبعـــا لنموذج الاختصار أو التقليل للجمل المنطقية.

على أي حال، هناك بعض اللسانيين من يحكم انطلاقا مـــن بعض الجمل بأن السانتكس القديم كان يقوم «بالأولى على نمـــاذج

من الجمل منه على ملفوظات (énoncés) فردية»[1]. هذه الاعتبارات التي كانت دائمًا وفق تنظيم دلالي صيغت في كلمات ومصطلحات لم تخل في معظم رؤاها وتفسيراتها وتعاملاتها مع اللغة من التأثير المنطقي، مع أن الكلام الإنساني هو من تحصيل الحاصل، لكن هذه هي المنهجية التي سادت في غابر الزمن، وفي العصر الوسيط، وفي نحو مدرسة بور رويال (Port Royal) ونحسب أنها لا تزال سائدة في كثير من مواقف اللسانيات المعاصرة وبعض مصطلحاتها إلى يومنا هذا.

بعد هذه الفترة، يمكن القول بأن السانتكس قد عرف أفكارا جديدة، تتمظهر في المفهوم البسيكولوجي الذي عُني بإيجاد بعض الطرائق البديلة بغية التوصل إلى دلالة أو معنى الملفوظات الفردية بواسطة تحاليل ليست هي بالمنطقية، لكنها تقوم على الادراكات البسيكولوجية، والرجل الأكثر إثارة للفضول في هذا الميدان هو شارل بالي (Charles Bally) الذي سعى كثيرًا قبل أن يتأتى له إلى جعل هذا الموضوع مألوفًا، بل استطاع أن يجسّد الأقوال الفردية التي تكوّن بدون انقطاع التكلمات اليومية.

بهذه الكيفية الاسلوبية، فإن السانتكس تكون قد عرفت تآلفًا جديدًا إزاء استغلال اللغة البصرية قبل أي شيء، ثم الوحدات المستعملة في هذه اللغة، فضلا عن ذلك، فإن هذا التحليل الجديد حاول أن يعطي تفسيراً للعلاقات الدلالية الكامنة تحت البني السطحية (sous-Jacents) للقول أو الملفوظ (énoncé).

---

1. المرجع السابق، ص. 366.

وإذا ذهبنا إلى القول بأن الوسائل التي اعتمدها بالي ليست بالجديدة مثل التعجب والاستفهام والاستغراب والمواقف الفردية ورد الفعل حول خطاب بأسلوب معين،... فإننا نستنتج في الوقت نفسه بأن هذا الرجل قد أعاد الاعتبار إلى السانتكس القديم لكن بطريقة جديدة لتلقي الملفوظات.

إنه ليمكن اعتبار السانتكس التقليدي هو السانتكس الحقيقي الذي عبّر عن الشعور الإنساني عن قرب، كما كان يمثل في الآن ذاته الوقائع اللسانية الحقيقية التي كانت تترجم بوضوح حقيقة الإنسان الداخلية، بمعنى أن السانتكس القديم يمثل واقع الوظيفة من الداخل معبّرًا عنها بالخارج، «كل الناس متفقون حول هذه النقطة : الوظيفة التبليغية (fonction communicative) هي أول وظيفة أصلية وأساسية للغة، وكل ما عداها ليس إلا طابعا لنماذج ليست ضرورية»[1].

إننا ندرك الواقع اللساني فقط كقواعد نحوية أو معجمية ثم إنجازها في لغة طبيعية، لكننا نفهمه أيضًا كمُرْسلة تبليغية بين مُرسلين ومُرْسل إليهم على هذا النحو :

مرسِل ⟷ واقع لساني ⟷ مرسل إليهم

انطلاقًا من عدة عوامل أكثرها أهمية التجربة اللغوية على شاكلة الأسلاف المسموع عنهم والمتعايش معهم (فيما يخص لغة طبيعية أو لهجات عربية حاليًا مثلا،...)

---

1. G. Mounin, *Clefs pour la linguistique générale*, éd Seghers, 1971, p. 7.

ويمكن أن نقبل بعض التعريفات الأخرى التي تعمق المفهوم السانتكسي بشكل عام حتى يأخذ المتتبع لهذا العمل فكرة عامة ثم يقابلها بما أشير إليه بخصوص دور ووظيفة السانتكس القديم.

إن قليسون (Glisson) يعرّف السانتكس بقوله : "من المناسب أن يقسم النحو إلى قسمين اثنين : المورفولوجيا والسانتكس، عمليتا الاشتقاق والتصريف تشكلان البناء (كلمات) إن هذا ما تعالجه المورفولوجيا،هذه البناءات تنتظم كبناءات أكثر أهمية في مختلف الأنواع بكيفية تقريبية، يمكن أن نعرّف السانتكس كمجموعة فمن القواعد التي ترأس هذا التنظيم"[1].

لكن هذا اللساني المعاصر الذي غدا منذ مدة مرجعًا أساسيًا في الجامعات الغربية في ميدان النظريات السانتكسية بعد تشومسكي وأنداري ما رتيني،.. يعترف بأن "التمييز بين المورفولوجيا والسانتكس ليس دائمًا دقيقا"[2].

لكن هذا اللساني يفهم من بعض أعماله التي طبقها على اللغة الإنجليزية قد لا تنطبق على كل اللغات العالمية، ولذلك أردف قائلا : «من المفيد أن يعرف السانتكس في عدة لغات كما سنعمل»[3].

ومما ورد أعلاه لا يفهم إلا شيء واحد، هو أن كل لغة أو عائلة لغوية على أبعد تقدير تتميز بخصائص نوعية، وستبقى طرائق الخطاب، ولربما هذه الفكرة التي نتبناها وندافع عنها طبقا

---

1. Galisson, *Introduction à la linguistique*, p. 150.
2. المرجع السابق، ص. 150.
3. نفس المرجع السابق، ص. 105.

للوقائع اللغوية وعادات المتكلمين في التخاطب والتواصل قد تتقاطع مع بعض ما ذهب إليه جورج مونان الذي قال : «ومع ذلك، فإن اللسانيات تبرهن لنا في كل لحظة بأن كل لغة تطابق عادة تنظيم قد يكون دائمًا خاصًا وفق معطيات التجربة، وأن التمفصل أو التلفظ الأول (première articulation) لهذه اللغة مدقق بالكيفية التي تتحلل وتنتظم وتترتب بها التجربة المشتركة لكل الأعضاء لمجموعة لسانية محددة، هذه الرؤى قد كانت دعمت من قبل قيوم (Guillaume)، وبالضبط، من قبل الفيلسوف (Ernest cassirer) واللساني الأمريكي (Whorf)، وذلك قبل سوسور واللسانيات الحالية»[1].

وإذا كانت التجربة التي نجدها تتكرر في أعمال أندري مارتيني اللسانية تتجسد في الفرد المتكلم ومدى درجة كفاءته اللغوية، فإن كل لغة إنسانية (أقصد نظمها) تتميز بميزة نوعية داخلية ترتبط قبل كل شيء بهويتها التي تنمّ عنها تلك الطاقة اللسانية الخلاقة في الأداء والتعبي.

من هذه الطاقة المرتبطة بسانتكس كل لغة ما نجده موزعًا حول طبيعة وإشكالية السانتكس العربي القديم، لكننا نجتزي هنا ــ على أن نعود بعد حين ــ بأول ما ظهر منها كدلالة على أصالة النواة الأولى للنظريات السانتكسية العربية، منها تلك التفاوتات في التسامح مع المتكلم الفرد أو الطعن عليه، وذلك كلما لاحظ هؤلاء انحراف تركيب عن سليقيته المعهودة سواء من الناحية النحوية أو المورفولوجية ــ حسب تقسيم قليسون أعلاه.

---

1. G. Mounin, *Clefs pour la linguistique générale*, éd Seghers, 1971, p. 73.

فإذا كان أبو عمرو أشد تسليمًا للعرب، وأن يونس بن حبيب كان يقف أحيانًا موقفًا وسطًا (والذي قال جائز حسن[1]) أو يتفقان علميًا أو عفويًا في الحياد إلى جانب أبي عمرو بن العلاء أمام بعض المعضلات التي تطرأ أو يتلفظ بها متكلمون فصحاء كموقفهما من الفرزدق، فإن ابن أبي إسحاق وعيسى بن عمر كانا يطعنان على العرب[2]. ولذلك وقف ابن أبي إسحاق موقفا متصلبًا من الفرزدق حين جركلمة بدل أن يرفعها حسب ما تقتضيه القواعد في قوله :

على عمائمنا يُلْقى وأرْحُلِنا على زواحفَ تُزْجى، مخُّها رير

إن الأمثلة من هذا القبيل غزيرة ومعروفة لدى المختصين، ولكننا أردنا فقط أن نلمّح بطريقة غير مباشرة إلى أن كل تركيب لغوي له ما يؤصله ويحال عليه، وعلى المتكلم أن يلتزم بهذا، وله الحرية في التعبير مع التنظيم والترتيب للعناصر فيما بينها وبين نفسها وبين المجموع، إلا أن هناك علاقة نسبية فقط، وليست مطلقة، بين المرسل (بكسر السين) واللغة والمرسل إليه، كما أن المتكلم حرٌّ في كل خطاب لكن حريته أكثر من المتلقي المقيد سلفًا بنص معطى، وهذه القيود تتعدد وتتعقد كلما تعددت وتعقدت أجناس كلامية.

ولربما كانت حرية المتكلم السانتكسية في موقفه إزاء إنتاج نصي معين في حد ذاتها متفاوتة وبذلك يتعدد المتكلمون أنفسهم تبعًا للجنس النصي، فيكون الناثر أكثر حرية في التعبير والبناء

---

1. طبقات الشعراء، ابن سلام 17/1.
2. نفس المرجع، ص. 16.

من الشاعر، ويكون الشاعر الملتزم بالعروض والقوافي أقل حرية من شاعر آخر لا يلتزم بالعمود الشعري، وكم أعجبني قول ابن سلام الجمحي القريب من هذا المعنى : «والمنطق على المتكلم أوسع منه على الشاعر، والشعر يحتاج إلى البناء والعروض والقوافي، والمتكلم مطلق يتخير الكلام»[1].

وإشارتنا السابقة إلى أن لكل جملة ما يوصلها وتحال عليه، لا تتعارض مع ما ذهبت إليه بعض التحاليل اللسانية المعاصرة، من ذلك أن تشومسكي يفترض دائمًا ما يسميه بالمتكلم البلدي أو الأصلي (locuteur indigène) لقبول جمل مولدة أو رفضها : «إن الهدف الأساسي للتحليل اللساني للغة "ل" هو فصل السلسلات النحوية التابعة لجمل لغة "ل" من السلسلات النحوية التي هي ليست من جمل لغة، ثم دراسة بنية السلسلات النحوية، إن قواعد "ل" ستكون هكذا وآلية (mécanisme) مولّدة كل السلسلات النحوية، أما وسيلة اختبار معادلتها للقواعد المقترحة للغة "ل" فهو أن نحدد فيما إذا كانت السلسلات المولدة هي حقيقة نحوية أو غير نحوية، بمعنى أنها مقبولة من قبل متكلم بلدي»[2].

والجملة الأخيرة لتشومسكي قد تبرر أحد مواقف عيسى بن عمر الذي انتقد النابغة الذبياني حين رفع سين السّم في قوله :

فبت كأني ساورتني ضئيلة من الرقش في أنيابها السمّ ناقع

وشين الشهد في موضع آخر، مع أن هذه اللهجة علوية[3].

---

1. نفس المرجع، ص. 56.
2. Noam Chomsky, *Structure Syntaxique*, p. 15.
3. طبقات الشعراء، ابن سلام 16/1.

لكن مشكل السانتكس المعاصر يبقى دائمًا مطروحًـــا، علـــى عكس السانتكس التقليدي الذي قام بحل أعظم مسألة فـــي اللغـــة الإنسانية لأن هذا السنتكس لم يفكر في تمزيق القيود التي ترتبـط متضامنة مع الإنسان يحويها ويختزنها عبر الزمن فضلا عن أنه يتلفظ ويتواصل بها، بينما السانتكس الجديد يحـــاول أن يتحـــرى العلاقات المختلفة التي تنظم الملفوظات (les énoncés) كلغة نهائية أو حتى توليد جمل غير نهائية ثم عرضها أمام التجربة اللســانية أي على المتكلم البلدي أن يقبلها أو يرفضها.

إلا أن تشومسكي لم يجب عن كثير من المسائل السانتكســية التي تركها معلقة (en suspens) مثل اشكالية السلسلات أو التتابعات النحوية هو نفسه طرح سؤالا حولها، لكنه لـــم يعطنـــا جـــوارًا ملموسًا أو مقنعًا : «على أي أساس نميّز فعليا السلسلات النحويـــة من غير السلسلات النحوية ؟ لا أحاول أن أعطي هنا جوابًا كاملاً لهذه المسألة، لكني أحب أن أشير إلى أن الأجوبة الكثـــيرة التـــي تأتي فوراً إلى الذهن لن تكون صحيحة، أولاً مـــن الواضـــح أن مجموعة الجمل النحويـــة يمكـــن ألا تكـــون مشـــابهة لأيـــة مدونة (corpus) خاصة للملفوظات المجمّعة من قبل لســـاني فـــي عمل تحقيقه»[1].

إننا نفضل ألا نتعمق في هذه النقطـــة إلا بتخصيـــص حـــيز مستقل للسانتكس العربي القديم وتذييله ببعض التحـــاليل اللســـانية الأخرى، وهو ما سنحاول إثارته في الفصل التالي.

---

1. Noam Chomsky, *Structure Syntaxique*, éd le Seuil, 1969, p. 17.

في السانتكس العربي القديم

ربما أجد من الفائدة بعد عرضنا لما ورد باختصار وتركـــيز، أن ألمح إلى وجوب تمييز السانتكس العربي كغـــيره مـــن البـــنى اللغوية العامة ما قدم منها وما حدث، حيث يكون منهجًا عامّـــا أو نظرية فردية، ... وحين يكون موضوعًا مرتبطًا باللغة، بحيـــث لا يبقى إلا الممارسة والوصف أو العرض والتحليل، بمعنى آخر من واجبنا أن نغوص في معرفة ما نعمل قبل أن نعمل لتفـــادي مـــا أمكن الخلط بين التراكيب أو النصوص،... وبين الأحكام التـــي لا تكاد تنتهي، والتي قد تزيد الموضوع تراكمًا علـــى تراكـــم دون طائل.

وحيث إنه من المستبعد أن يحيل قارئ في حقل علمي أو شبه ذلك على الصفر، فإنه لا بد من تكرار الإشادة بتلـــك النظريـــات العربية المبكرة التي تعاملت في أول أمرها مع موضوعها الجامع

لعدة مدونات مختلفة انطلاقًا من الصفر أي التأصيل، إلا أن هـذا التأصيل ما كان ليعود إلى تلك الرؤى التي تحولت تدريجيا، وفـي زمن قياسي في قصره، إلى نظريات سانتكسية خاصة ولسـانية عامة، لولا طبيعة الموضوع.

كانت تلك التراكيب العربية الشفوية السليقية محكمة في نسجها متقنة في بنيتها، ذات سعة مذهلة في حقيقتها ومجازها،... الأمـر الذي جعل السانتكسيين العرب الأولين يختصرون الزمن بفـضل الإدراك العلمي السريع الذي كان يطبع الفضاء العربي الإسـلامي في كل الميادين الباقية خلال تلك الفترة الروحية المبكرة.

إن اللغويين العرب الرواد :

1. تعاملوا أول ما تعاملوا مع اللغة كإعلام لساني خارجي آتٍ من باث أو متكلم نحو استقبال داخلي مؤسس علـى الإدراك الحسي من جهة والملكة اللغوية العامة المتبادلة بين كل مـن المتكلم والمتلقي من جهة ثانية، ويجب أن نركز علـى هـذه النقطة الإعلامية من الآخر نحو الأنا، والتي كثيرًا ما أهملـت ونحن نتحدث على نشأة السانتكس العربـي القديـم (إعـلام أسلوبي، معجمي، مورفولوجي، صوتي (فونتيكي) سانتكسي، خطاب عام، خطاب خاص، تركيب لغوي فصيح، لهجي،...)

2. تعاملوا مع الرسالة الإعلامية الملتقطة (سماع، روايـة...) كلغة (comme un langage) وليس كلغة بمفـهوم (langue) أو لسان، إن أرضية السانتكس العربي القديم مؤسس أولا علـى

ظاهرة الكلام (parole) ثم على ظاهرة اللغة كمنظومة كليـــة. حتى الأخطاء التي وردت في جمال وتراكيب والتي عـــدّت مرذولة ومطرحة في منطق المعيارية الصارمة كانت، فيمـــا نرى، أكبر حافز في إدراك ما غدا يدعى اليوم بالانزيـــاح أو العدول (écart) تارة أو الشعرية (poétique) تارة أخرى (فـــي بعض المصطلحات) إن العدول اللغوي كان مهما إلى درجـــة انه كان عاملاً من عوامل فك أو تحليل البنيـــة السانتكســـية السليمة من الفاسدة.

3. تعاملوا مع التراكيب الملتقطة كفضاء من القواعد في غاية التحديد.

4. كثيرا ما أرهقوا أنفسهم في البحـــث والتحـــري لإيجـــاد متطابقات سانتكســـية (équivalences syntaxiques) مؤديـــة أو متبادلة نفس الوظيفة أو متشابهة في ذلك،ولست بحاجة إلـــى التدليل على هذا والقراءات القرآنية مصدر ثري، ومن هذا ما يروى عن يونس بن حبيب أن آبن أبي إسحاق كان يعـــرف وجهًا لرفع "مجلف" في قول الفرزدق :

وعَضُّ زمانٍ يا ابن مروانَ لم يَدَعْ من المال إلا مُسحتا أو مجلفُ

بينما قال أبو عمرو بن العلاء : إنه لا يعرف لهذه الكلمة وجها، ومثله يونس ابن حبيب، وفي رواية أخرى أن أبا عمرو خـــاطب الفرزدق : «أصبت، هو جائر على المعنى، على انـــه لـــم يبـــق سواه»[1]، أي أن أبا عمرو المعروف بتســـاهله مـــع النصـــوص الموثوقة والعرب بشكل عام في تعابيرهم كـــان يعـــرف للرفـــع

1. الموشح، المرزباني، ص. 161.

معادلة سانتكسية ما على المعنى لم يفصح عنها لأنـــها يجـــب أن تفسر ببنية عميقة، بمعنى أن هذا العالم تعامل مع الفرزدق كمتكلم ومع تركيبه ككلام (comme une parole)، وليس مـــع الفـــرزدق كشاعر ولا مع تركيبه كلغة أو كنظام (systéme) من العلامـــات ملك (appartenant) لجماعة لسانية.

5. لم يتعاملوا مع السانتكس كتركيب متوقـــع (prévisible) بـــل كإنتاج مادي بني وانتهى، هذا في العملية الأولى، ثـــم أدركـــوا تكرار الظاهرة فنظروا إلى السانتكس كجمل متوقعـــة وغـــير منتهية لكن هذه التوقعيّات السانتكسية يجب أن تخضع لقـــاعدة نموذجية عبر عنها الزجاجي فيما بعد بـــ «العلـــل التعليميـــة بقوله : «فأما ألتعليمية فهي التي يتوصل بها إلـــى تعلـــم كـــلام العرب، لأن لم نسمع نحن ولا غيرنا كل كلامها منـــها لفظًـــا، وإنما سمعنا بعضا فقسنا عليه نظيره، مثال ذلك أنا لما ســـمعنا قام زيد فهو قائم، وركب فهو راكب، عرفنا اسم الفـــاعل فقلنـــا ذهب فهو ذاهب، وأكل فهو آكل وما أشبه ذلك... »[1]، وإذا كـــان الزجاجي قد اكتفى بالإشارة إلى الجمل النحوية، ولم يشر إلـــى غير النحوية فلأن ذلك كان عندهم من قبيل العبث، وليس معنـــى هذا أن العرب القدماء لم يفطنوا إلى هذا الشـــكل مـــن التوليـــد الصوري الذي بنى عليه تشومسكي نظريته السانتكسية لكن الأهم أن اللغويين العرب قد أدركوا بشـــكل أو بـــآخر أن المنظومـــة اللغوية شكل غير منتهٍ من الجمل، وأن المتكلم الأصلي يعـــرف النحوية من غير النحوية والمقبولة دلاليًا من المرفوضة.

---

1. الإيضاح في علل النحو، الزجاجي، ص. 64.

6. على ضوء هذه التعاملات المبكرة، صار الناس من عـــرب متأخرين (حسب المدينة أو البادية) وعجم متقدمين يتعاملون مع السانتكس تعاملاً أقرب إلى الملاحظة العلمية منها إلـــى كـــلام سليقي قائم على العفوية والشفوية، ثم كان التعامل مع المنظومـة اللغوية بشكل عام، وأخيرا، وهو الأهم : التأليف والنص.

وهذه الإنجازات العقلية سبقتها إنجـــازات طبيعيـــة تتصـــل بالموضوع ذاته، إن الدراسات السانتكسية انطلقت من نهاية أوج ما انتهت إليه الصنعة الكلامية عند العرب، والتي لفتت أنظـــارهم إلى بناها السطحية وطرائق تشكيلها.

ولذا فإننا نؤكد على الطاقة اللغوية الكامنة في كـــل لغـــة، وإذا كان هناك تفاوت محتمل أو حتمي بين لغة وأخرى، فإن ذلـــك لا يعود إلى الهدف المشترك والوحيد الذي يختص بالتواصل الإنساني من خلال بنيات سانتكسية، وهذا ما يفرق لغة الإنسان عـــن لغـــة الحيوان أو الحشرات المزعومة، ولكن في البنية السانتكسية التـــي تستقل بها لغة دون أخرى حسب خصائص داخلية صـــارت جزءًا من دليل الخطاب وعادات التكلم لدى أصحابها.

إن ما قد يكون غامضًا في لغة كالفرنسية مثلاً ليس ضـــرورة أن يكون كذلك في لغة كالعربية فجملة :

(Les enfants ont regardé les fleurs de la fenêtre) يســـودها الغموض في الفرنسية، إذ هل :

ـــ الأولاد شاهدوا الورود من النافذة.

أم

ـــ الأولاد شاهدوا ورود النافذة ؟

في حين أننا في العربية إما أن نقول :

ـــ شاهد الأولاد أو الأولاد شاهدوا الورود من النافذة.

أو

ـــ شاهد الأولاد أو الأولاد شاهدوا ورودَ النافذة.

وليس معنى هذا أن العربية منزهة من مثل هذه الغموضات، ولكن البنيات السانتكسية ليست متطابقة بنظام بين كل لغة وأخرى، وفي الوقت نفسه ليست اللغة مسؤولة بطريقة بنيوية مباشرة على الغموض في هذه الجملة أو الوضوح في تلك، فهذا وهْم تأملي أو ميتافيزيقي كثيرًا ما يعزى إلى اللغة وكأنها "كائن حي"، إن ظاهرة الوضوح أو الغموض إنما تنجم من جراء الفرد المتكلم الذي يحسن أو يسئ استخدام أو توظيف المواد أو الموارد التي توفّرها له اللغة، ثم إن الغموض أو الوضوح في بنية سانتكسية ينعكس في ذهن المتلقي الذي قد يعجز إدراكه الحسي عن فكّ أو تحليل الخطاب الذي يكون مرجعه المتكلم كجزء لا اللغة ككل.

إن المطلع على هذا السانتكس بعد قراءة أيا كان نوعها ومنهجها ليدرك سريع الإدراك بأنها صيغت وشكلت انطلاقًا من تلك الحياة العربية كمشاتل ثقافية (comme des semences culturelles) بيد أن تلك القواعد الصارمة كانت ذا ميل قوي إلى الطابع المنطقي بصورة عفوية غير تأثرية من أي عامل خارجي مؤكد، كانت تخضع عن رضى أو كره، اللغة ـــ كإنتاج فردي كلامي ـــ إلى هذا القانون، ولم تعد تسمح للمتكلمين للتلفظ بأية طريقة سانتكسية أو مورفولوجية أو معجمية... شاءوا، وصارت اللغة العامة هي المعيار

العام لكل الأفراد ولا سيما على مستوى الخطاب الرسمي، ولم تعد فترة تقعيد القواعد تحتمل ما احتُمِل من قبل في غياب القواعد العلمية إلا القواعد السليقية، من هذا ما رواه خلف الأحمر بأن رجلا أو شيخًا من أهل الكوفة قال له : "أما عجبت من الشاعر قال :

أنْبَتَ قَيْصومًا وجَنْجانًا

فاحتمل له، وقلت أنا :

أنبت إحاصًا وتفاحًا

فلم يُحتمل لي ؟ "[1] وأردف ابن قتيبة قائلاً : «وليس له أن يقيس على اشتقاقهم فيطلق ما لم يطلقوا»[2]. وأما الخليل بن أحمد فقال من جهته : «أنشدني رجل :

ترافع العز بنا فارْفَنْعَعَا

فقلت (الخليل) : ليس هذا شيئًا، فقال : كيف جاز للعجاج أن يقول :

تقاعس العزينا فاقعنسسا

ولا يجوز لي»[3]

وحاول الفقلغي (فقيه اللغة) هنري فليش (Henri fleisch) أن يوضح بعض الخصوصيات لهذا السانتكس في مبدأين : أولهما أن نميز قوة عمل الجر والنصب، أحدها قوي وآخرها ضعيف، ببساطة هناك أشكال قوية وأشكال ضعيفة، الشيء الذي كان يمكن من وضع اتباعات، مثلا، نصب الأفعال معتبر كقوة، لكن

---

1. الشعر والشعراء، ابن قتيبة، ص. 16.
2. نفس المرجع، ص. 16.
3. نفس المرجع، ص. 16.

الأدوات تعتبر ضعيفة بالنسبة للاسم يعتبر المفرد في الدرجة الأولى وأكثر قوة، بينما الجمع هو أكثر ضعفًا، كان بإمكاننا أن نضع الأصول والفروع (Les principes et les conséqences)، إن القوائم الموضوعة كانت تمكّن من إظهار الرتب التي كان يجب للكلمات أن تحتلها في الجملة (رتبة مرتبة) كل كلمة كان يجب أن تحتل رتبتها كانت تملك دورًا لأدائه (حكم) وكان لها حق لتمارس حقوقها في نطاق ما يسمح لها بأداء الدور.

أما ثاني هذين المبدأين فيبدو في مفهوم أو تصور (concept) الشبه (ressemblance) وتنوع الفرق، بوجه آخر فإن الشبه الجزئي يمكن من إقامة علاقات بين الكلمات المختلفة وإنشاء أصل وفرع (original et conséquence)[1].

أما جيرار ليكومت (Gérard Lecompte) فإنه في دراسته الوصفية يحصر السانتكس العربي في أربعة محاور[2].

1. السانتكس الاسمي (syntaxe nominale)
2. الجملة الاسمية (phrase nominale)
3. الجملة الفعلية المستقلة (phrase verbale indépendante)
4. الجملة الفعلية المتمفصلة (phrase verbale articulée)

ويقصد بالنوع الرابع :

---

1. Henri Fleish, *Traité de philologie arabe*, Imprimerie Catholique, Beyrouth, 1967, p. 6.
2. Gérard Lecompte, *Grammaire de l'arabe*, p. 91-123.

أ ــ الجملة المجاورة أو المتجاورة (Juxtaposition)

ب ــ الجملة التابعة أو الإتباعية أو الثانوية (Subordination)

ج ــ الجملة الشرطية (hypothéque)

إذا تعاملنا بنيويًا مع اللغة كقوة خارجية فإنها قانون اجتماعي بين أعضاء مجموعة، وإذا تأملناها بنيويًا كقوة داخلية فإنه لا دخل لعوامل نصب أو جر أو رفع في قوة هنا وضعف هناك، إن المنصوب (هنا الاسم) قد يكون واحدًا والعوامل مختلفة، وكذلك المرفوع والمجرور.

إن نظرة الفقلغي هنري فليش لا شك أنها كانت تغلب عليها فكرة شليجل بأن اللغة منظومة حية أي كأنها ظاهرة بيولوجية يتعامل معها اللساني مثلما يتعامل عالم الطبيعة مع الحياة.

إن اللغة أبعد من أن تكون منظومة من هذا القبيل، فهي لا تملك الإرادة حينا واللاإرادة حينا آخر كأعضاء جسم أو كائن حي، كما أنّ أعضاء منظومة بيولوجية أبعد من أن تشبه بوظيفة عناصر لغوية في أي علاقة أو وظيفة سانتكسية، وإذا كان لا بد من قوة مفترضة فإنما تلك القوة تتوزع بشكل متداع وضمني تحت البنى السطحية، وحتى ما أسماه العرب بـ "الفضلة" لم يعد مقبولا إذا أقررنا بقوة كل من المسند إليه والمسند دونها، إن "الفضلة" إذا لم تعتبر أساسية بنفس منزلة المسند إليه والمسند فلأن فضاءها الدلالي قد يشترك في ذهن المتكلم والمتلقي على حد متقارب من مساواة منطقية، فمن هنا بدت قلة أهميتها :

المسند إليه	المسند	الفضاء الدلالي
القاضي	يعاقب	الجاني ؟
الحكم	—	اللاعب ؟
الضابط	—	الجندي ؟
المعلم	—	التلميذ ؟
القانون	—	المزور ؟
الشمس	تطلع	من الشرق ؟
الشمس	تغرب	من الغرب ؟
الشمس	تحجب	من الغمام ؟
الشمس	حارة	في الصيف ؟
الشمس	ضعيفة، فاترة	في الشتاء ؟
الجو	معتدل	في الربيع ؟
الجو	بارد	في الشتاء ؟
.....	.....	.....

وهذا الفضاء الدلالي تقاطع لغوي مشترك بين المتكلمين على مستوى لغة واحدة وعلى مستوى أكثر من لغة، وهو كما نلاحظ من الجدول الاعتباطي أعلاه اعم في الفضلة منه في المسند فضلا عن المسند إليه لأن وظيفة القاضي ليست فقط العقاب، كما أن ألمعلم مثلما يعاقب تلميذه قد يجازيه، والضابط قد يرقي جنديه،... لكن المسند سواء تقدم أم تأخر في السانتكس العربي، هو الذي يوحي للمتلقين الفضاء الدلالي العمومي للتركيب، ولذا فإن أهمية التقديم والتأخير لا تأثير لها على البنية السانتكسية في اللغة العربية من مثل هذه التراكيب.

ومقابل هذا، فإن الغموض يبقى سائدًا هذا الحقل بالنسبة لتوزيع الأدوار للعناصر المتقاطعة سانتكسيًا ودلاليًا

ومورفولوجيا، إن النحويين مثلهم مثل المنطقيين يقولـــون بـــأن المسند يخبر عن المسند إليه، وإذا مثلنا بالحديث :

«خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي»ثم وزعنا عناصره هكذا :

المسند إليه	المضاف إليه	المسند	المضاف إليه	الجار	لمجرور	البنية
1. خير	كم	خير	كم	ــ	ــ	غامضة
2. خير	كم	خير	كم	لــِ	أهله	واضحة
3. وأنا		خير	كم			أكثر غموضا
4. أنا		خير	كم	ــ	أهلي	إزالة الغموض

فإننا نرى أنه لا المسند يكون دائمًا خبرًا موضحًـــا ومزيـــلاً لغموض المسند إليه، ولا ما سمي بـــ "الفضلة" هو فضلة بالمعنى الجوهري والوظيفي في السانتكس العربي.

جملة(1) كأن المسند توكيد للمسند إليه، وجملـــة(2) بفضـــل "الفضلة" صارت ذات دلالة كلية، وجملة(3) كانت اكثر غموضـــا إذا كنا نجهل المرجع أو المرسل (بكسر السين). أما جملـــة (4) فإنها تعادل في وضوحها جملة(2) باعتبـــار البنيـــة السانتكســـية المتشابهة ثم إن العناصر الموظفة فيهما قـــامت بنفـــس الـــدور الوظيفي فعلى اللسانيات العربية الجديدة أن تجتهد في إيجاد مخرج تنظيري وعملي لا تحليلي فقط لهذه الإشكالية التي مازالت تســـود كثيراً من تراكيبنا اللغوية.

إن التحليل اللساني الحالي للعبارة أو القول يتعامل مع المرسلة تبعًا لما يؤديه كل عنصر أو كلمة من وظيفة، والسانتكس العربـــي القديم كان يقوم على التحليل النحوي الكلي للأدوار التي تؤديـــها

الكلمات التي اكتسبت دلالات علمية جديدة، إلى جانب الوحـــدات النحوية المستقلة التي كُسِيَت بمصطلحات غير أن ما ينبّه عليه هنا أن الدرس اللغوي القديم عند العرب كانت عنايته مركــزة علـــى التركيب في ذاته أزيد مما انصبت جهوده على التحليل، لأن هدفه كان بناء وتشييداً لقواعد وليس تحليلاً لها، لكن التحليل كان يسـبق البناء من خلال التعامل مع المعطيات اللغويـــة الجـــاهزة ســـلفًا، واعني بها الخطاب الشفوي على وجه الخصوص.

وعليه فإن تلك التحاليل كانت تفرض مسبقًا بـــأن أي نـــوع خطابي إلا وكان يملك وظائف سانتكسية مختلفة كامنة تحت البنى السطحية، وهذه العملية في التعامل مـــع اللغـــة مـــن الخـــارج باعتبارها خطابات شفوية، ومن الداخل باعتبارها منظومة قائمـــة بذاتها أي متميزة عن باقي الظواهر والعلوم الأخرى، هـــو مـــا تذهب إليه أحدث المقاربات اللسانية المعـــاصرة حيـــث نجـــد أن «اللساني يستند على مجموعة الأقوال أو الملفوظات المحققـــة : إنها المدونة، هو يحاول انطلاقًا من هنا أن يؤسس قواعـــد هـــذه المدونة مستعملاً ما يتجلى منها من القواعد القياســـية التوزيعيـــة لعناصرها المؤلفة لها. إن اللغة في الواقع مكونة مـــن عنـــاصر متميزة أو قائمة بذاتها والتي تتركب فيما بينها بمختلف المستويات لتكوين وحدات مستوى أعلى : المستوى الفونيمي المورفولوجـــي، السانتاغمي (syntagmatique)، الجملي (phrastique)، هذه الوحدات الاعتباطية والتي تعدادها منته، لاتركب كيفما آتفق : كـــل لغـــة تحدد لأي مستوى نظامًا من الإجبـــارات (contraintes) وقيـــودًا (restrictions) لإمكاناتها التركيبية» (combinatoir)[1].

---

1. J. L-Chiss, Fillidlet, D. Mainguenau, *Initiation à la problématique*, Hachette, Paris, T2/7.

الباب الثاني

وجهات نظر لسانية في اللغة والاكتساب

1

طرائق ومراحل الاكتساب اللغوي

إشكالية لغوية تاريخية

حينما يريد الباحث أن يعرف ماضي لغته التي وجد عليها آباءه يتكلمون، أو لغات غيره، بحيث يكون مدركًا ماضيها وحاضرها وما طرأ عليها من تطور ــ إن كان هناك تطور مزعوم ــ أو تغيير، مذ عرفت في أقدم زمانها البعيد، لا يكاد يظفر بأولية نشأتها واقتفاء آثارها في جميع الحالات، لأنه يصطدم بأنها سلسلة لها بداية مجهولة، ولكنها في ذات الحين سلسلة لانهاية لها من وقائع الماضي المطموس، إلا ماضي الخرافات والأساطير، وحتى هذا الماضي ليس غريبًا كل الغرابة، لأن ظاهرة اللغة في ذاتها أسطورة، وليست فقط قصة منسوجة، باعتبار الأسطورة كل ما لا يستطيع الإنسان أن يجد له تفسيرا تجريبيًا خارج الواقع، إلا أن اللغة تظل مع ذلك أعظم أسطورة

خالدة وليست فقط أسطورة عرضية مرتبطة بحدث أو زمـــان أو مكان. الأولى، حتى ولو كانت مرجحة هي نفسها السامية الأم،... ولكن الدارسين يحارون حين يهمون بعـــزو هـــاتين الشـــجرتين الأخيرتين إلى أبعد من هذا، ومما يزيد الباحث حيرة تأكده من أن اللغة، على ما يحيط بها من تفسيرات ميثولوجية كـــأي ظـــاهرة اجتماعية، لم تولد من عدم، بل ولدت فـــي أحضـــان المجتمـــع البشري يوم أحس اجتماعيًا وفطريًا بالحاجة إليها.

اشكالية اجتماعية

وكثافة مجتمع من الناحية الديموغرافية لا تزيد لغته إلا نمـوًا واتساعًا لأن كل طفل يمثل جزءًا من لغته السابقة عليه وجـودًا : زمانًا ومكانًا، إذ كل وليد يطرأ عليه بعد ولادته تحوّل فزيولوجي فتتحول أصوات بكائه وإيماءات أصابعه إلى كلام بشري من نفس جنس بيئة نشأته وتربيتـــه لا ولادتـــه ــ بـــالضرورة، «بكلمـــة مختصرة، فإن المشي وظيفة بيولوجية ملازمة للإنسان، وليـــس نفس الشيء بالنسبة للغة (langage)، لاجرم أن الفرد إلى حد مـــا مُعَد كذلك إلى التكلم، لكن هذا ليس مرده كليا إلى أنه ولد فقط فـــي أحضان الطبيعة، لكن في وسط المجتمع الذي يتبنى بصورة أكيـدة تقاليدها، أقص المجتمعَ، فإنه من المعقول أن نعتقد مع ذلك بأنـــه سيمشي، مفترضين كذلك بأنه سيعيش، لكنه من المؤكد أنه لـــن يتعلم أبدًا التكلم، بمعنى أنه يبلغ أفكاره حسب نظام تقليدي لمجتمع خاص، أكثر من هذا، اعزل الفرد الذي يولد جديدًا فـــي وســط اجتماعي حيث يوجد وازدرعه في وسط آخر وهو غريب عنـــه

تمامًا، سيتكون له فن أو مهارة المشي في هذا الوسط الجديد تقريبًا كالذي كان يتعلمه في الوسط القديم، لكن كلامه سيكون مختلفًا كليًا عن كلام محيطه الأولي»[1].

ولا يزال الخلاف مثارا والتساؤل مطروحًا حول إشكالية لغتنا : أهي تكتسب اكتسابًا كالملكات والمهارات الفنية والثقافية والصناعية أم هي شيء غريزي فينا ؟ فلو كانت اللغة فطرية غريزية فينا لكان بوسع كل وليد أن يتكلم لغة تختلف عن لغة أسرته وما يتبعها من نظم وقواعد باعتبار كل مولود يولد على الفطرة.

ما تقول به بعض النظريات اللسانية

يذهب إدوارد سابير إلى أن «الكلام وظيفة غير متولدة عن غريزة (non instinctive) بل هو مكتسب، وظيفة ثقافية»[2]. أي ينبغي أن نفرق بين غريزة حركة المشى مثلا، والمعدة فيه منذ ولادته بل حتى منذ لحظة الحبّل والتي هي ليست إرادية وليس لها أي هدف مُبين، وهي تنتقل من الفرد إلى الفرد، بينما لغتنا تترسخ فينا من الجماعة إلى الجماعة بشروط ثقافية مبيّنة ذات دلائل تاريخية أو نشاطات إرادية آنية تخص الخلق والإبداع ما بعد مرحلة التكلم : «إذا كان من الممكن إذاً أن نقيم الدليل فإن اللغة (langage) كلها ترجع في أصولها الجوهرية التاريخية او البسيكولوجية إلى التعجبات أو النداءات (interjections)، فإن هذا

---

1. Edward Sapir, *le langage*, Petite Bibliothèque Payot, Paris, p. 7-8.
2. نفس المرجع، ص. 8.

لا يعني القول بعدُ بأن اللغة هي نشاط غريزي، لكن في حقيقة الأمر، أن كل المحاولات لتفسير أصل الكلام هكذا تبقى بدون طائل، لا توجد حقيقة ملموسة سواء كانت تاريخية أو غيرها لإقامة دليل على أن كتلة عناصر الكلام وأنساقها اللسانية تطورت انطلاقًا من هذه الأصوات وذا أهمية ضئيلة من وجهة نظر الوظيفة»[1].

لا أحد يستبعد اليوم بأننا نكتسب لغتنا عن طريق المحاكاة والتقليد. إننا وجدنا أنفسنا هكذا نتكلم لغة عامية نتواصل بها في أحضان مجتمع بدوي أو حضري، ونقضي بها مآربنا اليومية دون أن نجد متنفسًا أو ضرورة ملحة لتعريف كلامنا أو التساؤل عن أصله وفصله، ولم نتعلم لغة منفصلة عن أحد مستوياتها، إننا اكتسبنا هكذا لغة تواصلية كاملة لكننا لم ندر في أي سنة صرنا فيها مطبوعين على هذه اللغة العامية وفق تقاليد مشروطة في أساليب بنائها الذي يتنوع بتنوع الغرض والوظيفة.

إن النظريات الحديثة تذهب اليوم إلى أننا تعلمنا لغتنا الأبوية منذ نعومة أظفارنا، وأن اكتسابها كان سريعًا جدًا، وأن الصيغ الأكثر اعتياديًا كانت قد عرفت منذ سن الخامسة، أما قبل الخامسة، فإن وضع «اللغة الأبوية في مكانه قد تم أساسيًا بواسطة المحاكاة : الطفل يكرر ما أمكن بدقة الصيغ التي تنطق أمامه، ينتهي بتحصيل ذاكرة سمعية رحبة ومرنة بشكل مدهش، إن اللغة التي يحاكي هي لغة الكبار الذين يتواصل معهم، وبخاصة لغة أبويه»[2].

---

1. المرجع السابق، ص. 11.
2. Jeant Guenot, *Les langues vivantes*, éd Seghers, Paris, 1971, p. 19-20.

لكن الإشكال المطروح لا يحيط بالاكتساب اللغوي أو حتى كيفيته فهذه المسألة أثيرت عند العرب والأجانب القدماء وبُثّ فيها بشكل يكاد يكون مقنعًا، لكن الإشكال المطروح في حضور الوعي الإنساني أو غيابه خلال هذه العملية المبكرة من الاكتساب اللغوي الطبيعي، ثم هل الفرد يكتسب وهو يتواصل ويوظف في الوقت نفسه أم لا يحصل له هذا الاكتساب إلا بعد تواصلات "بيضاء" (communication blanche) مع الآخرين أو ممن يتصورهم أنهم آخرون ؟

إن أندري مارتيني المولع بـ" التجربة "و" التمفصل المزدوج (double articulation) يقول : "لنفهم جيدًا كيف أن اللغة يمكن أن تعرّف كتمفصل مزدوج، يجب أن تقتنع بأن الوظيفة الأساسية للغة الإنسانية هو إن تمكّن كل إنسان للتواصل مع نظرائه بتجربته الشخصية"[1]. ثم يردف قائلا : «إن التجربة كما هي لنقلها إلى الآخرين قبل أي مجهود، لا تلتقط عبارة من الكلمات، تجربة نموذج مباشر جدًا كوجع فيزيائي يمكن جيدًا من الفهم كيف أن اللغة تدخل اللعبة، رد الفعل الصوتي للوجع يمكن ألا يكون سوى انعكاس صرف وعادي، نخير، صياح، بدون شك أن هذا النخير أو التذمر أو الصياح يمكن ألا يكون مُرادًا، فهو يؤدي إذاً إلى تبليغ شيء، لكن هذا التبليغ ليس له طابع لساني :

القطط تراسل بواسطة مواءاتها، في الوقت الذي لا يوجد فيه طرح لرؤية فعل للغة في هذا المواء، يوجد فعل للغة عندما نمر

---

1. André Martinet, *La linguistique synchronique*, Presses universitaires de France, 1974, p. 9.

من تجربة متجانسة (homogéne) وغير محللة إلى اختصارها في سلسلة من المقاطع الصوتية المحددة،كل واحد من هذه المقاطع يمكن أن يستعمل لإرسال التجارب الأخرى التي تختلف إطلاقا مع الجميع... إذا قلت مثلا :

- عندي وجع في رأسي (J'ai mal à la tête)

فإني أستخدم ستة مقاطع، يعني ما هو آت : (tête,la,à,mal,ai,je) كل منها يمكن أن يوجد في سياقات مختلفة تمام الاختلاف لإرسال تجارب مختلفة كل الاختلاف»[1].

نحن واعون بأن هذا اللساني يحاول أن يعرف اللغة وكذا اكتسابها من خلال نظريته، وهو تعريف لا يخلو من سمات علمية وأحكام منطقية وأن لا أحد اليوم بحكم التجربة الإنسانية البسيطة ألا يذهب إلى ما ذهب إليه هذا اللساني، غير أن الموقف النهائي من هذه المسألة يظل غامضا لدينا، لأنها مسألة شائكة.

الاكتساب اللغوي اكتساب لا واع

ما هو النمط أو النموذج اللغوي الذي نريد أن نفصح عنه ؟ لا شك أن هناك نماذج لا حصر لها بالنسبة للغة، ماعدا القواعد السانتكسية، وحتى في هذه الحالة، فإننا نتكلم عن أنفسنا أزيد مما نتكلم عن غيرنا ممن سبقونا أو ممن سيأتون بعدنا، لأننا في هذه الحالة التي نتأمل فيها لغتنا ناضجة أو على الأقل قادرة على التبليغ وفق قنوات مضبوطة، فإننا ننطلق سلفا من منظومة مثالية

---

1. نفس المرجع، ص. 10.

لا يبقى إلا الاقتداء أو التقليد، فنحكم على الوليد في وسطنا بأنه فرد مقلّد منذ أول خطوة في حياته.

أظن أن اللغة معرفة من المعارف يكسبها الفرد في مراحل غير واعية في كبره لا في طفولته، إن الكبير لا يدرك معرفة الصغير، لكن الصغير يدرك معرفة الكبير وبالتالي فإن الصغار يحسون بلغة الكبار عن وعي شبه غائب أو صعب حجزه بالنسبة للكبار، بينما الكبار يشعرون بلغة الصغار عن وعي شبه حاضر أو مفترض بالنسبة للصغار، وكلما تدرج الطفل تنمو معه تلك المعرفة موازاة مع غياب متداع مستمر في لغة الكل المتقدمة على وجوده زمانًا ومكانًا، ولن يبقى له بعد مرحلة معينة من المعرفة سوى اقتناء الخطاب كسائر أفراد مجتمعه.

ثم من غير شك أن هناك فرقًا شاسعًا بين أن يكسب الفرد لغة بواسطة السماع والخطابات الشفوية، وبين أن يكسبها عن طريق الرؤية أو المخبر والنصوص المكتوبة، وهنا يجب أن ندخل في الاعتبار ما هو تطبيع. ولعل ثمت فرقا أشسع يتجلى في نوع اللغة كلغة خطاب بدائي لا تقوم لها قائمة بدون سواها، ولا سيما تلك التي ليس لها أي اثر حضاري أو فكري عبر تاريخ الإنسانية الطويل وبين لغة مفعمة بالتجارب اللسانية والأدبية والعلمية وسعت حضارات أممية وأفكارا عالمية ورسالات سماوية. لسنا هنا عاطفيين ولا مثاليين، ولكنها الحقيقة العلمية، ولكننا في الوقت نفسه نلتزم بالمبدأ العام للاكتساب اللغوي الذي يبقى مع ذلك محاطًا بأشباح من الأفكار، كم كان بودنا لو لم تفرض نفسها

علينا، لأن اللسانيات المعاصرة من ناحية تريد أن تتجنب الخوض في أصل اللغة ونشأتها والظروف الأولى التي صحبت الإنسان أول ما تكلم، ومن ناحية أخرى تأبى إلا أن تتكلم مثلما كانت الفقلغة تتكلم لكن بمنهجية تصفها بأنها صارمة.

مراحل الاكتساب اللغوي عند الطفل

على أي حال، ترى بعض النظريات اللسانية أنه يُمَيّز كلاسيكيا بين مرحلتين من تنمية النشاط اللغوي : «الأولى ما قبل لساني (prélinguistique) وهي تعطي العشرة أشهر الأولى من الحياة تقريبًا، يميز هذا النشاط التصويتي الاستهلالات والاصطفاقات التي تكون تظاهرات تنفسية، ثم نحو الشهر الثالث يراقب الثغثغات (lallatios) التي تحتوي على إمكانيات من التعبير الصوتي الأكثر امتدادًا من تلك التي ستستعمل في اللغة، الفترة اللسانية الثانية تبدأ في نهاية العام الأول الذي يشرع الطفل في إبداء عدة استيعابات (compréhensions) لتصرف التواصل لدى الكبير، خلال السنة الثانية يبدأ في تكوين نشاط لغوي مسلم به، إن اكتساب جزء من اللغة هو إذن ظاهرة سريعة جدًا»[1].

وترى هذه النظريات أن «الطفل يجب أن يعين نوع المراتب وليس العناصر المتمايزة... كان قيوم يلاحظ منذ سنة 1927 بأن الطفل يرتكب الأخطاء التي تشهد على تطبيق القواعد (خلق الأفعال مثلا) هذا يطرح مشكلا لمعرفة ما إذا كان الطفل يقلد أو

---

1. Osward Ducrot, Tzvetant Odorov, *Dictionnaire encychlopédique des sciences du langage*, éd du Seuil, Paris, p. 202.

يتعلم لغة الكبار، ونحن نعلم من جهة أخرى بأن الإعادة الصرف والعادية لجملة لن تكون ممكنة إلا إذا كان شكل هذه الجملة يقابل ما يكون الطفل قادرا على إنتاجه عفويًا؛ و إلا فإن هذه الإعادة لن تكون صحيحة»[1].

الاكتساب اللغوي ظاهرة متماثلة بين كل اللغات

إن الاكتساب اللغوي عادة ما يكون جامعًا بالتدرج على مستوى مجموعة لسانية واحدة لا تدخل الاعتبارات الخارجية فيه إلا نادرًا أو لظروف طبيعية أو أحداث غير متوقعة، هذا وسرعة أو بطء الاكتساب اللغوي هو أمر متماثل بين كل اللغات والمتكلمين ما عدا بعض الحالات الخاصة بكل لغة أو فرد متكلم : «هذه الوقائع تقود إلى اعتبار تعلم اللغة كاكتساب لمجموعة من القواعد ومحاولة لتكوين نحوٍ طفلي (Grammaire enfantine) بداية من مدونة عفوية ومغرية،... إن المشكل سيكون إذن في بحث ما إذا توجد علاقات نحوية مختلفة (بتعبير بنية الجملة) لبنيات دلالية مختلفة، إذا كنا نستطيع أن نبرهن على وجود بنية عميقة (structure profonde) لكل جملة، أكثر تعقيدًا من البنية السطحية الموصوفة من قبل هذه القواعد فإننا على الأرجح سنتمكن من فهم أفضل لهذه المرحلة والتي خلالها،كما يبدو، يتناول الطفل العلاقات النحوية المعقدة (complexes) التي لايعرف في هذه الأثناء التعبيربه"[2].

---

1. المرجع السابق، ص. 204.
2. نفس المرجع، ص.205.

والاكتساب اللغوي المتماثل في كل اللغات لا يعني التعميمس، إذ كل لغة لها بنيتها الخاصة وطريقة توزيعها للأصوات والنبرات الحادة والموسيقية والخفيضة والرفيعة،... إلى جانب إيقاعاتها النغمية «الروسي الذي يجب عليه أن يتعلم الفرنسية يلاقي عقبات أخرى كصيني أو مصري موجود في نفس الوضعية، إن الأمر يتعلق هنا بمشكل اللسانيات الخارجية التي لا يمكن أن يكون لها حل كامل إلا في إطار سلسلة من الدراسات الخاصة»[1].

وهناك واجهة أخرى للمشكل تتعلق بمسألة معرفتنا أو جهلنا للغة خلال تعلمنا أو استعمالنا إياها : أيرافق هذه الاكتساب اصطحاب للقالب النموذجي الذي نكتسبه أم لا يرافق اكتسابنا إلا ضرب من اللاشعور بالمعرفة المرحلية التي تختلف عند الصغار عنها لدى الكبار بالنسبة للادراكات الآنية للحقائق الضرورية لكل المراحل المعارفية ومهما يكن فإن المقارنة بين مراحل تنمية الفكر المنطقي ومراحل الاكتساب للقواعد أو القوانين السانتكسية تبين في الحالتين اكتساب أنظمة لن تكون ثمرة لصورة مجهول لنموذج، والذي يقتضيه الدور من قبل الطفل،... والحالة هذه أن اكتساب قواعد سانتكسية تعد ناضجة قبل الأوان[2].

الاكتساب اللغوي محصول كلي

الأخرى، المسألة تتعلق بالكل، وتوضيحًا لهذا، فإننا لا نكتسب اللغة الأم من محيطنا مرحليًا، بحيث هناك مرحلة صوتية،

---

1. Pierre Delattre, *Les sciences structurales : pourquoi faire ?* p. 54.
2. Osward Ducrot, Tzvetant Odorov, *Dictionnaire encychlopédique des sciences du langage*, éd du Seuil, Paris, p. 206.

ومرحلـــة فونولوجيـــة، ومرحلـــة مورفولوجيـــة، ثـــم مرحلـــة سانتكسية،... ثم تكون هذه القوانين كلها في مرحلـــة ثـــم تـــأتي المرحلة الدلالية أو العكس، وهذا خلافًا لما ادعاه شومسكي الـــذي تبنى فكرة كل من هاريس وبلو مفيلد والتي ترى انه من الممكـــن وصف النحو دون اللجوء إلى المعنى، رافضًا معيار القواعديـــة القائم على وجود الجملة في نص[1].

مع أننا نعتقد، وبدون تردد، بأن الوسط الاجتماعي الذي يوجـد فيه الطفل يعتبر أول نص متكامل له، وإذا كان الراشد لا يســتطيع فضل قاعدة عن معناها إلا مثلما ينجز في النحـــو الصـــوري أو الرياضي والذي لا يعني شيئًا بالنسبة للواقع اللغـــوي والتواصـــل المادي أو الملموس، فكيف بفردٍ ناشيء لم يسلخ السنة أو الســنتين؟ إننا إذا كنا لم نتعلم في لغتنا الأم (هنا العامية) قواعـــد سانتكســـية تصاحب العناصر أو الوحدات الدلالية فإننا من غير شـــك تعلمنـــا قواعد عفوية ما لا تزال إلى وقتنا غير مدروسة ولا مقننة.

الاكتساب وعلاقته بالسانتكس والدلالة

وهكذا يظل الإشكال قائمًا وبقوة حول تصورات أساسية مثـــلا لإشارة أو العلامة باعتبار الطفل يعتمد على هذيـــن العنصريـــن كثيرًا، وحتى الكبير إذا اعتبرنا أن اللغة مجموعة من العلامـــات، اعتباطية الإشارة أو العلامة، وما الذي يرجع منها إلى اللغة، مِمـــا يرجع منها إلى الكلام، ثم الإشكال المطروح حاليًا بيننا بالنســـبة

---

1. علم اللغة في القرن العشرين، جورج مونان، ص. 207.

للاكتساب اللغوي والمتعلق بالعلاقات بين السانتكس والدلالة، بل حتى مفهوم المعنى (sens) دون أن نتكلم عن الاختلافات في المصطلحات : «بالإضافة إلى ذلك، طبيعة النشاط اللغوي لم نعرفه حتى الآن جيدًا، أما أصلها فسيبقى دومًا لغزًا محيرًا، لن يكون سهلا إدراكه إلا عبر الأساطير باختصار لم نعرف منذ أي وقت بدأ الناس يتكلمون ولا كيف،إننا لا نستطيع إلا أن نحاول وصف وظيفة اللغات الطبيعية (langues naturelles)، أن نطوّق من هناك المميزات الشمولية (universelles) للغة (langue) وأن نصوغ فرضيات حول العمليات المكتنفة بالأسرار التي وضعت المخ الإنساني موضع الفعل لتمكننا من التكلم»[1]. ولعل نظرة المدرسة التوزيعية التي ترى إمكانية للوصف النحوي دون اللجوء إلى المعنى هو ما جعل شومسكي يميز أحيانًا بين"الوصف اللغوي" و "الوصف البنيوي" حيث يتعامل الأول مع بنى سطحية «يجزئ وحداتها ويعددها ويصنفها وهذا يعني أنه يدرس علم الأصوات والفونولوجيا والمورفولوجيا، فيما يقوم الآخر"بوصف التحويلات" التي توصل إلى البنى السطحية[2]».

والنص أعلاه لا يعني الإقصاء بالجملة للعنصر الدلالي عند تشومسكي وهو الذي أكد على الجمل النحوية الدلالية وعقد لها فصلا خاصا في كتابه "البنية السانتكسية" (structure syntaxique) تناول فيه ما يصل الدلالة بالقواعد، وهو الذي صرح :

---

1. Marina Yaguello, *Pour comprendre la linguistique*, éd du Seuil, Paris, 1987, p. 15.
2. علم اللغة في القرن العشرين ص. 214.

«إن الجمل النحوية هي الجمل التي لـــها معنـــى (signification) دلالي»[1]. وهو الذي أثار هذه الإشكالية قائلا : «لا يوجـــد طـــابع للدراسة اللسانية التي تتيح لنا الخلط والتي تكون في حاجة أكـــثر لصيغة واضحة وحصيفة مثـــل الحاجـــة إلـــى نقـــاط الوصـــل (Jonction) بين السانتكس والدلالة، الســـؤال الحقيقـــي الواجـــب طرحه هو : «كيف أن الآليات (mécanismes) السانتكسية المقبولـــة شرعًا للغة معطاة توضع في الاستخدام الفعلي لهذه اللغـــة ؟»، إن علاقات السانتكس والدلالة بكثرة قد سادت كمشكل ثانوي حيـــث فهم فهما سيئًا : هذا الشكل، هو معرفة ما إذا كنا في حاجـــة أولا للإعلام الدلالي لاكتشاف أو اختيار قواعد (نحو) ؛ والتحدي الذي يطرحه عادة الميالون إلى جواب تأكيدي هو : «كيف تســـتطيعون أن تنشئوا نحوًا دون إحضار المعنى»[2].

«ومع ذلك كما يلاحظ من تساؤل تشومسكي الأخير ودراساته فـــي مواضيع أخرى تؤكد ما أدلى به جورج مونان آنفًا بأن الرجل يتذبذب في مواقفه حول هذه المسألة أي العلاقة بين الدلالة والسانتكس خـــلال صيغ الجمل، علمًا بأن لا أحد يتصور أن طفلاً ينشئ جملـــة نحويـــة بدون دلالة بينما قد يكون العكس خاصة في اللغات التي لا يلعب فيـــها نحوها أي دور أو دور كبير في الدوال على معانيها.

والحق أن هذا الإشكال مصطنع في إثارته أكثر ممـــا هـــو حقيقة لغوية إنسانية، لأنه من غير الممكن أن نفصل تركيبا عـــن

---

1. Noam Chomsky, *Structure Syntaxique*, éd du Seuil, Paris, 1969, p. 107.
2. نفس المرجع، ص. 106.

بنائه، ولا بناء عن تركيبه، وتراكيب اللغة قد تتعدد ومواد البنـــاء واحدة، وهذا التعدد قد يكون شكليا أو أسلوبيا والمقصود واحـــد، وقد يكون جوهريا أي متعدد الدلالات وعناصر تأليفه واحدة، لكن لا بد من عنصر مهيمن، دون أن تعطى أهميـــة لـــهذا العنصـــر قياسات وهمية ما عدا قيمته التي تكمن في علاقتـــه بالعنـــاصر الأخرى مع التركيز في كل حالة يتكرر فيها هذا العنصر نفســـه على القيم المتفاوتة للعنصر ذاته من تركيب إلى آخر.

تميز الاكتساب بخصائص ذاتية لكل لغة

إن النظريات اللغوية القديمة منها والحديثة على ما تراه مـــن تشابهات شمولية وقواعد كلية تابعة للغة الإنسانية بوسع أي إنسان مستعد للكلام والنطق أن يتعلمها، ترى في الآن ذاته أن كل لغـــة تتميز عن سواها من اللغات بخصائص داخلية لا تخص إلا ذاتها، وهذه الخصوصيات الذاتية لا علاقة لها بأي شكل انـــتروبولوجي أو قومي أو تاريخي، وإذا كان لا بد من وجود سبب محتمل فـــإن الأمر قد يرجع إلى الغموضات والأساطير التي تكنف اللغة ذاتها.

إن اللغات المعروفة لدى المختصين لا يلاحظ فيها إلا نمـــط واحد من نظام الجمل «ففي كل منها لفظات تمثل العلاقة بينـــهما أساس التركيب ومحوره، ثم تأتي الألفاظ الأخرى لتوضح جـــزءًا من أجزاء هذه العلاقة، وقد سمى العرب هذين اللفظيـــن مســـندًا ومسندًا إليه،... وفي اللغتين الإنجليزية والفرنسية يمثل المصطلح (subject)[1] المسند إليه، ثم يأتي الفعل ليكـــون مســـندًا، وتســـمى الألفاظ الأخرى عندهم (complément)[2] أي المتممات.

---

1. هذا في الانجليزية، وفي الفرنسية sujet (فاعل).
2. هذا في الانجليزية، وفي الفرنسية complément (متممات أو مكملات لإســـناد، أي العلاقة بين وحدتين لغويتين Rapport entre deux unités).

إلا أن العربية تزيد على غيرها من اللغات الحيـــة بالســمة الإعرابية، فهي تختلف عن إعراب اللغة الألمانية مثلا، إنه فيــها أصوات خاصة تلحق آخر حرف من الكلمة المعربة، وتخضع... لأحد مؤثرين : مؤثر تركيبي لفظي ومؤثر معنوي صـــــرف،... ومن هنا نجمت نظرية العامل في اللغة العربية ولم تنجـــم عــن غيرها من اللغات »[1] ولذا حين نتحدث عن اكتساب لغوي فـــهناك ما هو عام بين كل اللغات، وهناك ما هو خاص وأخص بكل لغــة على حدة ربما ليس فقط على مستواها الداخلي بل يتعـــداه إلـــى عوامل خارجية أخرى كالوسط الاجتمـــاعي والمكـــان،.. ولـــذا وجدتني أميل إلى تخصيص فصل للاكتساب اللغوي عند الفـــرد العربي مستقلاً عن هذا الفصل.

1. أصول النحو العربي، د. محمد خير الحلواني، ص.181-182.

الاكتساب اللغوي عند الفرد العربي
بين العفوية والنظريات اللسانية

الاكتساب اللغوي بين التلقي الشفوي والكتابي

مما لاشك فيه أن ذلك الفرد العربي القديم الذي كان يكتسب لغته العربية الفصحى ويوظفها كلغة أحادية في كل المجالات يختلف عن هذا الفرد العربي الجديد أو غير المطبوع الذي غدا منذ عهد طويل من الصعب تحديده تربويًا وعلميًا خارج نشأة علوم العربية، يكتسب لغتين : إحداهما سليقية تتعلق بالتلقي الشفوي العفوي الذي نتج عن انتشار العربية بانتشار الإسلام ونفوذ الدولة العربية الإسلامية سياسة وإدارة و فكرًا وحضارة،... وهذا الانتشار الواسع السريع أدى إلى تكسير وتفكيك محاصيلها الصوتية والنحوية والصرفية وتفشي عاهات

في نظامها الفونولوجي، والمورفولوجي وثانيتها غير مطبوعة لأنها تتصل بالتطبيع، بحيث صار لا يوظفها إلا في الرسميات كالإدارات والأدبيات، مما جعل الفرد العربي منذ ظهور عهد التطبيع أو منذ اقتناعه مختارًا أو مكرهًا بتبني هذا النمط من اللغة مزدوج اللسان داخل لغة واحدة واللغة السليقية لهذا الفرد الحالي، كما نعلم، شفوي فقط، وأما الثانية التي كانت في وقت من الأوقات محكية فقط فأضحت اليوم مكتوبة أيضًا ولولا هذه الكتابة لكانت اليوم ظاهرة أخرى أولم تكن شيئًا حتى إن سوسور قال : "ولكون اللغة تنأى عن واقع الملاحظة، فإن على الألسني أن يأخذ في حسابه النصوص المكتوبة لأنها وحدها تمكّنه من معرفة اللغات القديمة أو البعيدة زمنيًا"[1] حتى وإن كان سوسور لايقف موقفًا موحّدا من هذه المسألة، حيث سبق أن قال قبل هذا النص : «إن النقد الفقهي يقع في عجز متمثل في جانب واحد، وذلك لكونه مرتبطًا باللغة المكتوبة بصورة حرفية متناسيًا اللغة الحية»[2].

لا شك أن تعميم سوسور رؤيته على كل الدراسات الفقلغية القديمة يرجع إلى عدم اطلاعه على الدراسات اللغوية لدى العرب، حيث قامت تلك الدراسات مرتبطة بنصوص شفوية لا كتابية، وللرجل ثغرات أخرى كثيرة في كتابه المشار إليه من هذا النوع، ستذكر في ثنايا هذا العمل كلما كان مقام ذكرها مناسبًا.

---

1. محاضرات في الألسنية العامة، ص.17، ف، دي سوسور.
2. المرجع السابق، ص.11-12.

ولربما وقف الرجل هذا الموقف لوكوننا اليـــوم «لا نعــرف عامة اللغات إلا كتابيا، وأما ما يخص لغتنـــا الأم نفســـها، فـــإن الوثيقة ماثلة دائما بين أيدينا، وإذا ما أنيط الأمر بلغة محكية على بعد زمني ما، فإنه لحتمي بشكل أكثر من ذلك السعي إلى الشهادة الخطية للكتابة، وإذا كانت اللغات غير الموجودة هـــي المعنيـــة بالأمر، فإن الحاجة إلى ذلك أمس وألح»[1]. ومع ذلك فإنه يرى بأن الشكل المكتوب يتميز سموا على الشكل المنطوق، ثم لا يلبـث أن يعود ليقول : إن الآراء السائدة التي نتناقلها حول اللغة لتمـــتزج بهذا الوهم المتزامن، ومن هنا يسود الاعتقاد أن بلغة ما تنحـرف بسرعة أكبر في حال غياب الكتابة ولا شك أكثر خطأ من ذلـــك فالكتابة تستطيع ــ وهذا في بعض الظروف ــ أن تحد من سرعة تغيرات اللغة وعلى النقيض من ذلك، أن الاحتفاظ باللغة لا يمس إذا غابت الكتاب[2]. وبعدما يضرب المثال باللغة الليتوانية التي لـــم تعرف الوثائق الخطية إلا منذ عام 1540م يردف قائلا : «إن هـــذا وحده كاف لبيان كم هي اللغة مستقلة عن الكتابة»[3].

ولعل أوضح ما جاء عنده في هذا المنحى قوله : «للغة تقليـد شفوي مستقل عن الكتابة وثابت على نحو آخر»[4] وهذا لا يعنـــي في مفهومنا أن هذا التقليد الشفوي منظومة لغوية تختلف جوهريـا أو تنحرف عادة عن الصورة التقليدية للغة المكتوبة إلا في جـانب

---

1. نفس المرجع، ص.39.
2. المرجع السابق ن ص. 40.
3. نفس المرجع، ص. 40.
4. نفس المرجع، ص. 40.

واحد هو الجانب النطقي لأصواتها وهذا يكون حسب اللغـــات إذ يقل في لغة كالعربية ويكثر في لغة أخرى إلى درجـــة الفوضـــى كاللغة الفرنسية.

الاكتساب اللغوي وإشكالية العامي والفصيح

وإذا كنا نعتقد بأن الخطاب الشفوي التقليدي يعد عاملاً مـــن عوامل التطور اللغوي في اتجاهات لسانيّة غير ثابتة ولا مستقرة إلا في الذاكرة الشعبية التي يمثل دماغها الخزّان الطبيعي فإن هذا لا يعني أن هذا الخطاب المتأمل بنصوص تراثية وخالدة ينشـــق عنها بعيداً إلى درجة أن هذه العاميات العربية ستؤول في زمـــن ما إلى فصحى ثانية للعرب كما يَوْهم بعض البـــاحثين العـــرب المعاصرين :«ويبدو لنا أن مصير اللهجات العامية منفردة فـــي أقطارهـــا ومجتمعـــة فـــي الأقطـــار العربيـــة كلـــها كخصـــم للفصحى،مصير مغلق محتوم النهضة العلمية والأدبية وانتشـــار الجامعات والصحافة، وأن نظام التعليم للأطفال والناشئة ســـيقود العرب ثانية إلى لغة موحدة قريبة من الفصحى التي تبناها القـرآن الكريم، وستكون للشعوب العربية لغة فصحى حديثة، تؤدي عنهم ما يريدون، وتنقل لهم ما يحبون سماعه»[1].

كيف أمكن للعربي في العصر الجاهلي أن يصطلح على لغـة فصيحة مشتركة واحدة رغم الظروف القاسية المتعـــددة وعـــدم وجود نصوص مكتوبة شعرية كانت أم نثرية، ولا يستطيع هـــذا

1. اللهجات العربية القديمة، د. داود سلوم، ص. 16.

العربي اليوم أن يتمسك بلغة فصيحة واحدة ليضطر إلى خلق لغة فصحى ثانية ؟ موقف كهذا الموقف غريب، لكن في المقـــابل لا مانع من العمل على تفصيح العامية وردها إلى أمها أي العربيـــة الفصحى، ومع ذلك لن نستطيع مادامت كل عامية ممتزجة بآلاف الكلمات المحلية، ومن المستحيل تبديلها بكلمات أخرى، وإذا تغلب المختصون على هذه الاستحالة مع افتراض أقصى، فـــإن هـــذه الاستحالة لن تزول حين يراد فرض الكلمات البديلة على الطبقات الشعبية أو المتكلمين في كل قطر عربي بشكل عام، وبذلك تبقـــى الفصحى فصحى، والعامية عامية، لكن التهذيب والتثقيف وتعميـــم التعليم وتطوير وسائل الإعلال الفصيحة الحية بين هذه الشـــعوب قد يعمل تدريجيًا على تهذيب العاميـــة العربيـــة وتقريبـــها مـــن الفصحى الأم، إذ لا يمكن إخضاع الأسوأ إلى الأحسن.

إنتاج الخطابات الشفوية في ضوء الوظائف الست

إن اللغة كانت ظاهرة شفوية وعدة لغات لا تزال غير مكتوبة «إن مشكل النقل والحوار الفكري هو الذي قاد الإنسان إلى تحديـــد فكره بواسطة الإشارات من الرسوم أو الحروف[1]». وإذا كـــــانت اللغة المكتوبة اليوم تنسجم أو تتأقلم في التواصـــــلات والأبحـــاث أكثر من اللغة الشفوية (langue parlée) فإن المعـــبر يملـــك كـــل الوقت لاختيار وعرض أفكاره وصيغ جملـــــه وكلماتـــه، «هـــذا الاختيار مراد وواعٍ، لكن الانشغال الجمـــالي ليـــس بـــالضرورة غريبًا على اللغة الشفوية»[2].

---

1. Charles Gordert, *Guide pratique de la grammaire française*, éd Hachette, 1978, p. 7.
2. نفس المرجع، ص.9.

ونحن اليوم إذا ما تأملنا بعضًا من تلك الخطابات الشفوية التي كان الفضاء الثقافي العربي مصدرًا طبيعيًا وواقعيًا لغويًا لها لأدركنا، وبدون تردد، تلك العلاقات السانتكسية الدلالية المتلازمة، ولأدركنا في الآن ذاته أن العنصر اللغوي بقدر ما كان يوظف توظيفًا مباشرًا كان يوظف أيضًا بطرق شتى وغير مباشرة بواسطة ما يعاد له أو يبادله في السياق، وخاصة بالنسبة للوحدات المستقلة مثل أدوات الاستفهام والنفي والجر والاستثناء،...

إن عملية التلقي كانت عملية شفوية في كليتها، وإذا أردنا اليوم أن نتصورها كيف كانت تتم عَبْر قنوات اتصالها فإنها كانت تتم على الشكل المألوف :

سياق

مرسل.....رسالة.....مرسَل إليه

اتصال

رمز اتصال

ذلك أن الكلام ليس فقط أداة، لكنه أيضًا وسيلة من وسائل الاتصال الأساسية، فهو شكل للفعل، وسيلة لتأكيد نفسه ككيان اجتماعي، قبل أي شيء هو خطاب للذة مثلما قد يكون خطابًا للعذاب "وكلّ فعل للتواصل الكلامي يضع في اللعبة متكلمًا أو مرسِلا يرسل رسالة نحو مرسل إليه أو مخاطب (يمكن أن يكون غائبًا ويمكن أن يكون مفترضًا)" هذه الرسالة مهورة بمرجع

(موضوع الخطاب، إلى أي شيء يحيـــل) ليبـث رسـالته (أي المتكلم) يستعين برمز اتصال، والذي من المفروض أن المخاطَب يقاسمه فيه، أخيرًا فإن التواصل يشترط قناة فيزيائية (الصـــوت الصفحة المكتوبة، الحركة،...) لتؤدي إلى إقامة الاتصال.

هذه العناصر الستة متضامنة في فعل التواصل الكلامي، لكن الواحد أو الآخر من بينها يمكن أن يأخذ أهمية خاصة، الشـــيء الذي يمكن من وضع هذه الوظائف الست الأساسية فـــي اللغـة بشكل واضح :

- المتكلم تقابله الوظيفـــة التعبيريـــة (expressive) أو الندائيـــة (émotive).
- المخـــاطِب (linterlocuteur) يقابلـــه الوظيفـــة التحريضيـــة (incitation).

(استجواب الأمر)

- المرجع تقابله الوظيفة المرجعية (réferentielle) (إعلام).
- الاتصال، تقابله الوظيفة الانتباهية (phatique) (تبادل المشاعر، اتصالا اجتماعي).
- رمز الاتصال يقابل بوظيفة تعدي اللغـــة أو مـــا وراء اللغـــة (تحليل رمز الاتصال).
- الرسالة، تقابل الوظيفة الشعرية (تلاعب بالألفاظ، لذة النص)[1].

1. Marina Yaguello, *Pour comprendre la linguistique*, éd du Seuil, Paris, p. 19-20.

إن عملية الاتصال وسط مجتمع عملية ليست بسيطة، لا سيما بالنسبة لمجتمع كالمجتمع العربي قبل عصر التدوين.

إن علاقة المتكلم بقنواته الخارجية ليحصل له فعلي إجبـاري بالكلام علاقة متميزة بمراعاة عوامل أساسية من هذه القنـوات أو الوظائف ومنها ما هو موضوعي مثل الحضور، البعـد، غيـاب المرسل إليه، مبادلة رسالة أولا،... ومنها ما هو ذاتي واجتماعي تُهمّ بوجه أخصّ وضعيات أو حالات المتكلـم الخاصـة وكـذا علاقاته.

ذلك أن كل نموذج لرسالة « يملك شروطه الخاصة للإنتـاج، للنشر، للاستقبال، إن شروط التوصيل ليست هـي عينـها فـي الحوار أو العرض مثلا : إن تقدم الوسائل السمعية البصريـة أو القصص المصورة ينطوي على وجود نماذج جديدة من الرسالات المستعمِلة لأشكال لسانية نوعية.

دون أن نعمل هنا جردًا لأوضاع التواصل، نأخذ في الحسبان التعارض الجوهري بين أوضاع التواصل الشفوي والكتابي الـذي يحدد الاشتغال التبـايني (fonctionnement différentiel) لرمـوز الاتصال من جهة والخطيئة من جهة ثانية أن نصل إلى تصنيـف لغوي لمرسلات ارسالات) شفوية وكتابية، إن هذا التصنيف سيقوم على عدد من الثوابت : زمن الإرسال، زمن الجـواب، بعـد أو قرب المتقبل، تبادل أو عدمه، هكذا داخل الوضع الشفوي، نمـيز المحادثة (conversation) كوضع من التواصـل الـذي يتضمـن

مستقبلا راهنا (≠ تقديريا virtuel)، ملاصق، اتصال فوري، تبادل، إن أهميـــة الصلـــة المتفـــق عليـــــها بواســـــطة وســـــيلة التبليغ (communication) ليست أصغر أهمية : التعليق لن يكـــون هو نفسه إذا كان الأمر يتعلق بمرجع مختلف أو مرجع ظاهر»[1].

لا تتحقق اللغة كمنظومة إلا باستعمالها

إننا بتبني هذه النظريات مبدئيًا، يمكن أن نقدّر تلـــك الجـــهود التي كان الفرد العربي يبذلها في الاكتساب اللغوي مـــــن وســـط اجتماعي لغوي قائم على الشفوية، وتمكّننا في الآن ذاته من إزالـــة ما أمكن التعارض "الاجتماعي اللساني" ما بين اللغة الأدبية واللغة الشفوية اليومية في ذلك العصـــر، لأن التعـــارض «الشـــفوي ـــ الخطي» لم يكن حاصلاً عند العرب، وأن ما كان يتعلمـــه الـــفرد العربي كان أحاديًا في مرجعيته المرتبطة بالكل، هو كان يكتســـب لغته بطريقة عفوية تتم بطريق شاقٍ شبه غير واع إلا من غـيره، إنه كان يتعلم بإصغائه للآخرين «إذ أنها (اللغة) لا ترتســـم فـــي دماغنا إلا بعد تجارب عديدة... والانطباعات التي نستقبلها عـــبر سماعنا الآخرين هي التي تغير عاداتنا الألسنية»[2].

إلا أنه على الرغم مما قد تزودنا به هذه النظريات اللســـانية الحديثة سواء ما اتصل منها بالاكتشاف أو التبليغ بالنسبة لحقـــل اللغة البشرية، فإنها لا تستطيع أن تقنعنا بشكل حاسم حول الكيفية

---

1. J. L- Chiss, J. Fillidlet et D. Mainguenau, *Initiation à la problématique structurelle*, éd Hachette, Paris, p. 79-80.

2. محاضرات في الألسنية العامة، ص. 32.

التي كان يتم بها ذلك الاكتساب العفوي من مراجع كلها شـــفوية، ومحاولة الإحاطة بتلك الكيفية لا تخلو من أسرار وعجائبيات حين ننظر إلى هذا التلقي كعملية لسانية شمولية تستقصي وتحيط بكـل خفايا اللغة وتعدد وتنوع تراكيبها من اشـــتقاق وبنيـــة وحقيقـــة ومجاز،... مما يجعلنا نميل إلى الاعتقـــاد القـــوي بـــأن اللغـــة كمنظومة أو مدونة في حد ذاتها لا معنى لها دون استعمالها، هـذا الاستعمال الذي ينطلق فرديًا ثم يؤول إلى قواعد قد تصير مقبولة جماعيًا، لكن متى صار هذا الاستعمال عادة لسانية جماعيًا تقلص استعماله فرديًا في أشكال لغوية خارج ما آل إليه كعـــادة لســـانية جماعية، لأن الإبداع قانون فردي وليس شركة جماعية، ثـــم إن الفرد لا يبدع إلا حين يحس أو يظن بأنه خارج الجماعة، ومن ثم فإن القول أو الوصف شيء والإبداع شيء آخر، يجب أن نتفادى الخلط بينهما.

وليس معنى هذا أن تعبيرًا متعدد الأوجه ينحزه فـــرد واحـــد بدعوى أن تعدده يدل على تشارك من المتكلمين المتباينـي الزمان والمكان، إن أكثر من خلق يقوم به عادة أزيد من فرد واحـــد، ولا سيما حين تتعدد هذه البنى اللغوية في أزمنة متباينة وأمكنة متنائية فكلمة : رجُل "التي وردت في القرآن الكريم علـــى اثنـــي عشـــر وجهًا[1] كانت من خلق متكلم واحد، دون أن نهمل الإبداع القرآنـــي وتوسيعه لحقيقتها ومجازها، ومع ذلك فإن القرآن عربي اللسان، وهو حجة للعربية وليس حجة عليها.

---

1. الأشباه والنظائر، ص. 159-161.

لكن المسألة مع هذا تظل لغزًا في كل لغة ليست لها معـــاجم تاريخية دلالية، فكيف إذا أضفنا جهلنا بمراحل قواعدها التـــي لا نقف اليوم عادة إلا موقف المتفرج الذي لا يلبث أن يفـرّج عـــن نفسه بالوصف والتحليل.

وإذا كان من النزاهة والموضوعية العلمية أن يعتفرف المـــرء بإنجازات غيره، فيمكن اعتبار سوسور أول من عمـــق مســـألة الوجود اللغوي لدى المجموعة الناطقة بها، على شكل مجموعـــة آثار مرتسمة في كل دماغ على شكل معجم تقريبًا وتكون جميـــع نسخة المتماثلة موزعة بين الأفراد، فهي إذاً أشبه ما تكون بشيء موجود عند كل فرد، وهـــي مشـــتركة بيـــن الأفـــراد جميعًـــا ومتموضعة خارج إرادتهم ويمكن تمثل طريقة وجودها بالصيغـــة التالية :

1+1+1+1+.....= (نموذج جمعي)[1].

اختزان اللغة في الاستعمال وليس في الدماغ

بيد أن مقولة وجودٍ لغويٍّ مجموعةُ آثاره مرتسمة فـــي كـــل دماغ غيرُ مقبولة لدينا، إن الوجود اللغوي في استعماله وانتشـــاره وليس في احتوائه، نحن لم نرث التراث الأدبـــي الجـــاهلي عـــن طريق أدمغته التي كانت تختزنه بقدر ما ورثنا ذلك بفضل ما كان مستعملا فعليًا من ذلك التراث، والوجود اللغـــوي متـــى قاطعـــه الاستعمال أصبح عرضة للتلف والإهمـــال، ولا ســـيما بالنســـبة

1. محاضرات في الألسنية العامة، ص. 32.

لمجتمع بدوي يغلب عليه التواصل الشفوي المطلق والاكتساب اللغوي على السماع والتجربة المتكررة والعادات البلدية والشعبية في الاتصالات والخطاب، إن اللغة تحيا بالاستعمال لا بالدماغ الذي هو جهاز مكلف بهذا الاستعمال، كما أن الشيء غير المؤكد منه حتى الآن : هل الأدمغة المفترض فيها أنها تختزن لغة معينة تختزنها موزعة فيما بينها ؟ هل العربية الفصحى أو هذه العاميات مشمولة كلها اليوم في أدمغة العرب، لا اعتقد ذلك، إن المجتمع البدوي الذي رحل من بادية إلى مدينة مثلا لم يعد يختزن الكثير من قاموسه اللغوي الريفي إلا كذكرى عارضة ولذا، فإن الشكل السابق الذي تصوره دي سوسور يبقى لدينا صحيحًا في شكله لا في نفسيره، وتبعًا لهذا فإننا نتصوره كالتالي :

1+1+1.....< الاستعمالات الجديدة أو المحولة

1+1َ+1ً.... ≥ الاستعمالات الشائعة أو الجاهزة.

ونحن هنا لسنا بعدُ بصدد الحديث عن اللغة في ذاتها بل عن تلقيها واستعمالها، وفي هذا الشأن يرى تشومسكي أن اللغة تعرّف بواسطة بنياتها السانتكسية وليس بواسطة استعمال هذه البنيات في التبليغ[1].

وكما يلاحظ من أول وهلة أنه لا يمكن أن نستسيغ هذه الفكرة لتشومسكي إن هذه النظرة للغة نظرة جزئية، لأن هذا يؤدي بنا إلى الاعتقاد بأن الاكتساب للغة يتم فقط عن طريق بنياتها

1. Daniel Delas et J. Fillidlet, *Linguistique et poétique*, librairie Larousse, Paris, p. 192.

السانتكسية مع أن هذه البنية لا تشكل بالنسبة لها إلا مستوى واحدًا حتى في اكتساب لغة حية معاصرة لا يتم إلا عبر ثلاثة طوابع (Aspects) أساسية ؛ هي البنية الفونولوجية، والبنية المورفولجية، والبنية السانتكسية[1] وكل فرد من مجموعة لغوية إلا وقد استبطن (a intérorisé) وهو يتعلم لغته الأصلية (langue naturelle) «نموذجا للغة ونحوًا (grammaire) من ثلاث طبقات : دلالي، سانتكسي ومورفولوجي، كل من يهتك الواحد أو الآخر أو المجموع من هذه المكونات الثلاثة وهو، مبدئيًا غير نحوي (agrammatical)[2] أي البنية اللغوية بكامل عناصرها المتشاركة فعليا فيها وليس بأحد أو بعض عناصرها، والعربي القديم لم يكن يتلقى لغته الأصلية إلا كاملة مثلما يتعلم العربي الحديث، ومنذ عهد بعيد، هذه العامية التي تعدّ لغته الأولى بالنسبة لبيته ومحيطه، وعلى هذا، فلغتنا مختزنة في الاستعمال، وليس في الدماغ، أين دماغ الخليل بن أحمد ذلك اللساني الجبار الذي حفظ العربية، أو كاد، استعمالا وإهمالاً وأين دماغ أبي عمرو الذي كانت كتبه، سوى ما حفظ، ملأ بيت حتى السقف، وأين دماغ سيبويه صاحب قرآن النحو وأين، وأين...؟ إن الدماغ اللغوي لا يورث بدماغ تالٍ بل يورث بما خلفه من ورائه من إبداع واستعمال، ولا تبقى إلا طريقة البحث والتقصي من أجل الوقوف على الكيفية التي تنسخ بها تلك الإستعمالات التي هي مبدئيًا ما بين استعمال مجدد أو محول، وما بين استعمال شائع وجاهز.

---

1. Denis Girard, *linguistique appliquée et didactique des langues*, éd Armand colin, longman, 1972, p. 6.
2. J. B. Barinion et Geneviene Dupont, *Pour comprendre la linguistique*, Marabout université p. 44.

ثم إن ما يسمى بوجود لغوي متموضع خارج إرادة الفرد لا معنى له خارج إرادة الفرد في الاستعمال، ويبدو أن اللغة مثلما تكتسب تستعمل ومن الصعب تحديد الهوة بينهما ما دامت الهوية بين النظامين متماثلة إلى حد ما، غير أن الناس في ذلك فريقان : فريق يركز نظره على التحليل والوصف، وفريق يستغرق في الحديث عن أصلها ووظيفتها، لأنه لا يمكن المزج بينهما في الوقت نفسه. واللغة لا تتطور أو تتغير خارج الاستعمال اللامتناهي في إبداعه وتجديده تبعًا لخصائص كل لغة داخلية كانت أم خارجية، لأن عزل اللغة عن مستعملها مرام وهمي.

اللغة قيم متحركة لا ثابتة

وحتى الرسم السابق الذي مثل به دي سوسور الوعي الجمعي الحي للأدمغة يظل متنازعاً فيه، لأنه يمثل قيمًا أو كميات ثابتة، مع أن اللغة متفاوتة ومتنوعة في هذه الأدمغة تبعًا لتصور سوسور نفسه، ولذا فإن الرسمين المستوحيين منه هما أيضًا يظلان ناقصين، إذا أخذنا بعين الاعتبار كذلك الاستعمالات المتفاوتة والمتباينة حسب الطبقات المتكلمة أو المعبرة التي تستعمل اللغة وفق مستويات اشتغالها وعليه فنميل إلى التصور الرياضي التالي :

س + ص +ع +... ③ (بالنسبة للأول) (ط)

سَ + سً + سًَ+...③ (بالنسبة للثاني) (ك)

والتصور (ط) يمثل استعمالات آنية أو آتية، بينما التصـــور (ك) يمثل استعمالات جاهزة أو شائعة، ويمكن لهذه الاســتعمالات أن تجسد هكذا أي حتى نفرّق بين ما قيل أو استعمل وبين ما يقال أو سيقال استعمالاً :

← استعمالات العصر المجهولة

← استعمالات العصر الجاهلي

← استعمالات العصر الإسلامي

← استعمالات العصر الأموي

← استعمالات العصر العباسي

← استعمالات عصر الانحطاط

← استعمالات العصر الحديث

← استعمالات العصر الآني

← استعمالات العصر الآتي والاســـتعمالات اللغويــة المعلومة أو المفترض فيها أنها معلومـــــة بالنســبة للمتكسب الملعوم أو المفترض فيه أنه معلوم، لأنـــه من غير الممكنا الإلمام بجرد كلي لكـــل اســتعمال وكل مكتسب، مرت أو تمر على النحو التالي :

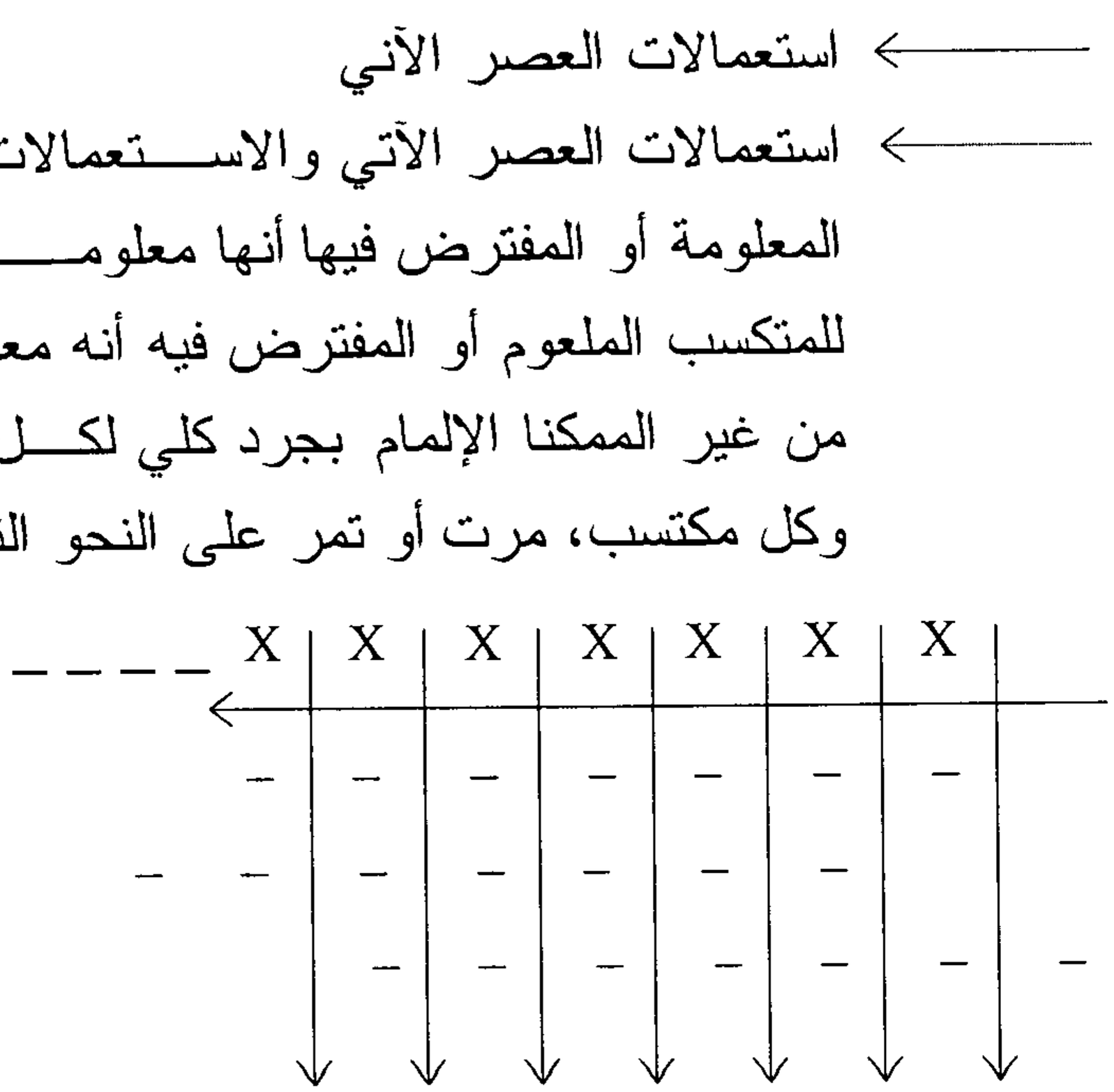

بحيث تتقاطع الاستعمالات، ليتـــمّ علـــى المحـــور العمـــودي الاختيارات الممكنة من المتكلم بالنسبة لبـــاقي كـــل الاختيـــارات الأخرى، لأن كل مرسلة (message) تقدّر أو تفرض كذلك سلســـلة متوالية من الاختيارات، أو قل: يؤلف الجرد «لكل مقطع من القول، ولكل الوحدات القابلة لأداء نفس الوظيفة في نفس السياق[1]» بينمـــا يختص المحور الأفقـــي بالتعارضـــات التركيبيـــة أو التوفيقيـــة (Contraintes combinatoires) أي يرمز إلى السلسلة الكلامية، لأنـــه ينظم العلاقات التركيبية (relations syntagmatiques).

الملكة اللسانية والاكتساب اللغوي من وجهة نظر ابن خلدون

ومن العرب المحدثين من حاول أن يبرز من خلال الألسـنية ونظرياتها الحديثة لغة الطفل العربي، من هؤلاء الأستاذ جـــورج كلاس الذي حاول أن يبحث هذا الموضوع فاتخذ الطفل اللبنـــاني أنموذجا، لكن العنوان لكتابه يختلف تمامًا عما جاء، في داخلـــه، ذلك أن الرجل لم يتكلم عما ورد في عنوان مؤلفـــه إلا القليـــل، حيث لا يشكل عنوانه إلا فصلا واحدًا من الفصول الخمسة، وفي مساحة خطية لا تتعدى اثنتين وعشرين صفحـــة (مـــن الحجـــم الصغير) من بين مائتين وست عشرة صفحة!، أما باقي الكتـــاب فهو دراسة عامة تخص الطفل العربي مثلما تخص غيره، ولربما هي أولى بالثاني منها بالأول لأنها ترتكز على نظريـــات لغويـــة غير عربية لا تفيدنا من الناحية الحسية والميدانية بالنسبة لنظـــام

---

1. المرجع السابق، ص. 55.

الاكتساب اللغوي لدى الطفل العربي أو الفرد العربي بشكل عـام، والحق أن ما وجدته عند ابن خلدون أفادني في هذه النقطة أعظـم فائدة من أي مرجع عربي آخر، من هنا نتخذ هذا المرجع أساسـاً لبيان هذه العملية ذات الطابع اللغوي ــ الاجتماعي كيف كـانت تحصل للعربي إلى غاية عصر ابن خلدون دون أن نقصي مـا تقاطع مع نظريات ابن خلدون اللغوية ــ الاجتماعية كلما كان هذا التقاطع العلمي أو الفكري بعيدًا عن أي تعسف.

إن ابن خلدون، كعالم اجتماعي، حاول أن يوضـح العلاقـة التي تربط اللغة بقوانينها أو قواعدها منبّها علـى الفـرق بيـن الظاهرتين من جهة، وأن يبيّن هذه العلاقـة بيـن اللغـة أيضًـا وصلتها بالحياة الاجتماعية بشكل عام أي في جميع حقولها، ولـم يكن إنجازه هذا تأمليًا أو ناتجًا عن بذخ فكري كمـا نجـد لـدى بعض فلاسفة يونان بل عن معايشة ودراسة ودراية كثـيرًا مـا فاقت النظر الثاقب لعلماء اللغة أنفسهم، لقد بيّـن بوضـوح أثـر المجتمع المنعكس على لغته أو شتى خطاباته، ولقد سـبق بذلـك علماء الاجتماع الأوروبيين الذين غالبًا ما يحيلون على دور كـايم الذي ــ اعتبر أحد المراجع لدي سوسور.

إن ابن خلدون ينطلق من فكرة منطقية أن الإنسان يتميز عـن الحيوانات في إدراك الكليات وهي مجردة مـن المحسوسـات[1]. ويؤكد على أن الملكة إنما تحصل بتتابع الفعـل وتكـراره، وإذا

1. المقدمة، ص. 489.

تتوسي الفعل تتوسيت الملكة لناشئة عنه[1]، مؤكدًا في أكثر من موضع على أن العرب لم يكونوا يحتاجون إلى فهم معاني القرآن في مفرداته وتراكيبه إلى قوانين خارجية أو مستقلة عن العربية[2] «وحين كان الكلام ملكة لأهله لم تكن هذه علومًا ولا قوانين، ولم يكن الفقه حينئذ يحتاج إليها لأنها جبلة وملكة، فلما فسدت الملكة في لسان العرب قيدها الجهابذة المتجردون،... واعلم أن هذا الفن (الفقه) من الفنون المستحدثة في الملة، وكان السلف في غيبة عنه بما أن استفادة المعاني من الألفاظ لا يحتاج فيها إلى أزيد مما عندهم من الملكة اللسانية»[3].

والملكة عد بن خلدون لا تختص باكتساب فن أو علم... دون سائر الفنون والعلوم الباقية بما فيها العلوم العقلية «اعلم أن الصناعة هي ملكة في أمر عملي فكري وبكونه عمليا هو جسماني محسوس،... والملكة صفة راسخة تحصل عن استعمال الفعل وتكرره مرة بعد أخرى حتى ترسخ صورته، وعلى نسبة الأصل تكون الملكة، ونقل المعاينة أوعب وأتمّ من نقل الخبر والعلم، فالملكة الحاصلة عن الخبر على قدر جودة التعليم وملكة المتعلم في الصناعة وحصول ملكته»[4].

إن الاكتساب اللغوي للفرد العربي لم يكن يختلف عن هذا الوصف في أحد شقيه أولاً ثم بكلا شقيه ثانيًا، والاستعمالات

---

1. نفس المرجع، ص. 534.
2. نفس المرجع، ص. 438–440.
3. نفس المرجع، ص. 454.
4. المرجع السابق، ص. 399–400.

اللغوية الحاصلة في تلقي ذلك الفرد كانت أصلية ضمن طبقة لغوية مشتركة من خلال السماع والمشاهدة، ولذلك كانت الملكة اللغوية العربية قبل التدوين أنضج وأوعب وأتمّ من الملكة العربية مما يعد عصر التدوين (نقل المعاينة أوْعَبُ وأتم من نقل الخبر والعلم).

وبعْدُ النظر لدى ابن خلدون أن الفرد إذا حصلت له ملكة، فإنه قلما يجيد في ملكة أخرى «والسبب في ذلك أن الملكات صفات للنفس وألوان فلا تزدحم دفعة ومن كان على الفطرة كان أسهل لقبول الملكات وأحسن استعدادًا لحصولها، فإذا تلونت النفسُ بالملكة الأخرى وخرجت عن الفطرة ضعف فيه الانسداد باللون الحاصل من هذه الملكة، فكان قبولها للملكة أضعف»[1].

إن عدم تآلف ملكتين من صناعة واحدة قد يكون أقوى أي أبعد إتقانًا لهما معًا في الآن ذاته لتداخلهما، وكلما تباينت الملكات في فنونها ربما كانت أوضح حصولاً ولا أقول أسهل، لأن ما تقارب من الظواهر يكون أقرب إدراكًا مما بعد منها، العربي يجد سهولة أحسن من أوروبي في تعلم العبرية، والإسباني يجد يسرًا أفضل من عربي في تعلم الإيطالية أو البرتغالية...

وسوف نجد ابن خلدون يستغل نظريته وهو يصف فسادًا للملكة اللسانية في العربية، رادًا ذلك إلى الملكة اللغوية الأصلية السابقة عند الشعوب المفتوحة على العربية لغة الفاتحين.

---

1. نفس المرجع، ص. 405.

والملكة عنده أيضًا هي ليست فيما يفهم أو يدرك بـــالوعي، لأننا نجد فهم المسألة الواحدة من الفن (إطلاق عام هنا) الواحـــد ووعيها مشتركا بين من شدا في ذلك الفن وبين من هو مبتـــدئ فيه، وبين العامي الذي لم يعرف علمًا وبين العالم فيها «فدل علـى أن هذه الملكة غير الفهم والوعي، والملكات كلها جسمانية ســواء كانت في البدن أو في الدماغ من الفكر وغيره»[1].

ولا حظ ابن خلدون أن الملكة لا تحصل إلا بكـــثرة وحريـــة التصرففيما تواجه أو نحفظ من نصوص، فأهل إفريقية والمغـرب لم تحصل لهم ملكة اللسان جملة حين اقتصروا على القرآن «وذلك أن القرآن لا ينشأ عنه في الغالب ملكة لما أن البشر مصروفـــون عن الإتيان بمثله فهم مصروفون لذلك عن الاستعمال على أساليبه والاحتذاء بها، وليس لهم ملكه في غير أســـاليبه فـــلا يحصـــل لصاحبه ملكة في اللسان العربي، وحظه الجمود فـــي العبـــارات وقلة التصرف في الكلام»[2].

وعليه، فإن المفهوم العام للملكة عند ابن خلـــدون يقـــوم علـــى أساس أنها تختص بالإنسان دون غيره من الكائنـــات أي يجـــب أن يكون لمن تحصل له استعداد فطري اعتباطي، وأن تكون كليـــة لا تتصل بأصحاب صناعة أو اكتســـاب علـــم دون آخريـــن، وأنـــها جسمانية وحسية، وهي قد تكون جبلة لكن على مرحلتيـــن : ملكـــة

---

1. نفس المرجع، ص. 430.
2. المرجع السابق، ص. 539.

أولى أو تعميم أولى، وملكة ثانية أو تعليم ثـــــانٍ، فـــالأول خـــاص بالناشئة عبر مراحل، والثاني متعلق بالكبـــار، لأن اكتســـاب لغـــة فصيحة بعد اكتساب لغة عامية يجب أن يخضع لهذين النوعين مـــن الملكتين اللتين يستحيل لإحداهما أن تذوب جملـــــة وتفصيـــلا فـــي الأخرى، ومن هنا فإننا نستبعد دائمًا وجود ملكتين عند الفرد العربي الأول : إحداهما فصيحة وأخراهما عامية على شـــاكلة المجموعـــة اللسانية التي صارت تتواصل بالعربية بعد فســـاد الملكـــة الأولـــى وتلقيحها بملكات لسانية محلية حسب كل جهة جغرافية معينة.

ومما يسمح بوجود ملكات من الاكتسابات اللغوية المتدانيـــــة حينًا والمتباينة حينًا آخر أن العربية كغيرها من اللغات الإنســـانية مؤلفة من بنيتين : عميقة وسطحية، يستطيع المتكلم أن يولد جمـــلا لا متناهية من التركيب الفطري البـــاطني الكـــامن عنـــده لبنـــاء وصياغة بنيات سطحية بفضل ما أسماه تشومســـــكي بالكفـــاءة، (compétence) والأداء (performance)، وكذا يوجـــد مـــا أســـماه أندري مارتيني بالتلفظ المزدوج الأول وهي الوحـــــدات الدالـــة، والتلفظ المزدوج الثاني وهي الفونيمات، بمعنى أن الملكة الأولـــى لهذا الفرد في صغره تتقاطع مع الملكة الثانية له في كبره أو فـــي سن معينة (حسب الوقت التي تحصل فيه الملكة الثانية)، وبالتالي تتلاقى ملكات أفراد في وسط اجتمـــاعي ــ لغـــوي واحـــد، لأن هؤلاء الأفراد يظلون مرتبطين بقواعد عامة بين لغتهم الأصليـــة ولغتهم الفرعية، وهنا تنشأ صعوبة أخرى منهجية فـــــي تحديـــد ماهيته الأصلي والفرعي.

وعلى الرغم من تداخل الملكات، فإن كل ملكة تظل منتميـــة إلى صفتها وحدود تفاعلها مع ما يقاربها أو يباعدها من الملكات، غير أن الملكة مع ذلك تظل مستقلة عما تحتويه، فاللغة ليست هي الملكة ذاتها والعكس بالعكس، ولكن الملكة مقدرة طبيعية وعاديـة في الاستعمال بعد حصول اكتسابها.

والملكة عند ابن خلدون بشكل عام هي ما يدل على العموم أو الكلي الذي لا يخص جنسًا دون آخر، وعلى الفردية وهو صاحب هذه الملكة والتمرس فيها بشكل طبيعي وعلى اللغة وهي تخـــص مجموعة اجتماعية معينة، وعلى الكلام وهذا الأخير يعـــــرف أو يعين من خلال نوعية الخطاب ودرجته ومستواه، ونتصوره كمـــا يلي :

لسان	عمومي
ملكة	اكتساب خصوصي
لغة	جماعية
كلام	فردي

والملكة عند أبي خلدون تختلف عن الثنايات أو التعارضـــات التي ولعت بها بعض النظريات اللسانية، إذ هي كفاءة وأداة في آن واحد، ولا يمكن لأحدهما أن يقوم مقـــام الآخـــر أو يقـــوم دون الآخر، خلافًا لما عند تشومسكي :

ـــ كفاءة/ أداء compétence /performance

أو عند سوسور :

ـــ لغة / كلام langue/ parole

أو عند أندري مارتيني :

ــ مونيم / فونيم monéme/phonéme

أو حتى عند سوسور على الشكل الآخر:

ــ دال / مدلول signifiant/signifié

أركان اللسان العربي عند ابن خلدون

حين يتطرق ابن خلدون إلى الحديث عن علوم اللسان العربي حيث يذكر أن أركان هذا اللسان أربعة : اللغة، النحـــو، البيـــان، الأدب، يشير هنا كعالم لساني وليس كعالم اجتماع إلى أن الأهـــمّ المقدم منها هو النحو لأنه أصول المقاصد به تتبين فيعرف الفاعل من المفعول والمبتدأ من الخبر،... مردفًا بأنه كان من حق علـــم اللغة التقدم «لولا أن أكثر الأوضاع باقية في موضوعاتـــها لـــم تتغير بخلاف الإعراب الدال على الإسناد والمسند والمسند إليـــه، فإنه تغير بالجملة ولم يبق له أثر، فلذلك كان علم النحو أهم مـــن اللغة إذ في جهله الإخلاص بالتفاهم جملة وليست كذلك اللغة»[1].

بين تشومسكي وابن خلدون

ونحن كنا قبل هذا لمحنا إلى تشومسكي الذي حـــاول أن يولـــد قواعد سانتكسية دون اعتبار للدلالة، حتى إنه ذكر بأن اللغة تعـــرف بواسطة بنياتها السانتكسية وليس عبر استعمال هـــذه البنيـــات فـــي التبليغ، وإذا ملنا إلى أن ما عناه ابن خلدون بـــ : "علم النحو" يقـــابل

1. المرجع السابق، ص. 545.

اصطلاحيًا أو قريبًا من هذا "السانتكس syntaxe" فإن الرجلين يكادان يتقاربان، «تشومسكي كان يؤمّل أن يعالج السانتكس باستقلال عن الدلالة... وبالفعل، يمكن أن تكوّن جمل تبدو في حدس اللساني من الناحية السانتكسية صحيحة، لكنها تفتقر إلى المعنى، إن قواعد النحو التوليدية إذن، في وقتها الأول، تكون مؤلفة كقواعد للسانتكس، إن علماء النفس اللغوي خلال الستينات من هذا القرن حددوا لأنفسهم غاية الإثبات الصحة البسيكولوجية للأنموذج التوليدي حققوا تجارب مُعَدة إلى البرهنة على أن التعقيد البسيكولوجي لقول (énoncé) كان على صلة بصف العمليات المتعاقبة المبينة بالأنموذج من أجل أن ننتج، سطحيًا(en surface)، التحويلات المختلفة لإحدى الجمل النواة (phrase-noyau)، أجهدوا أنفسهم كذلك ليثبتوا، دارسين الجمل الغامضة (les phrases ambigües) حيث إن نفس التتابع في البنية السطحية يمكن أن يكون مشتقًا من بنيتين عميقتين، بأن هذه البنى العميقة (أو هنا البنيتين العميقتين) وقواعد الاشتقاق كان لها شرعية بسيكولوجية، وأخيراً بحثوا لمعرفة ما إذا كان الإدراك الحسي لجمل كان فهمه يتضمن مسعى أو إجراء عكسيًا لدى الجيل»[1].

تقديم ابن خلدون النحو على اللغة

إن ابن خلدون قدم النحو على اللغة من أجل الحفاظ على سلامة الدلالة ومنعًا لتفشي اللحن في التعبير على ألسنة القوم، ورأينا من قبل كيف أن تشومسكي تذبذب في موقفه هذا، لكنه

---

1. J. B. Barinion et G. Dupont, *Comprendre la linguistique*, Marabout université, p. 58-59.

صرح مع ذلك بأن الجملة النحوية هي كل جملة ذات دلالة حيث عقد فصلا خاصًا لهذا الموضوع، لأن الغموض الذي أربكه في عدة جمل أجبره إلى الاعتراف، «إن الجمل النحوية هي الجمل التي لها معنى دلالي[1]».

لكن الملاحظة التي نبديها على ابن خلدون عدم قبولنا لقوله : «كان علم النحو أهم من اللغة» إلا إذا كان يقصد بهذا الطابع المنهجي لأننا لا نعرف نحوًا بدون لغة، بينما نعرف هذه اللغات الأصلية أو العامية تتكلمها الشعوب العربية مشرقًا ومغربًا، ولا نعرف لها نحوًا مؤسسًا، والعربية في عهد سليقتها كان أصحابها يتخاطبون بها في كل أغراضهم ومقاصدهم ولا يعرفون علميًا أن لها نحوًا يصحبها ويقوّمها، فاللغة روح ونحوها جسد أو اللغة شكل ونحوها نظم وتنظيم لها.

إدراك ابن خلدون الفرق بين التواصل والوظيفة للغة

لكن الأهم من هذا أن ابن خلدون أدرك الفرق البيّن بين اللغة كأداة تواصلية إعلامية بطرقها المتعددة وكوظيفة إنسانية من جهة وبين علم النحو أو السانتكس الذي يخص قواعد هذه اللغة من جهة ثانية «ولعلنا لو اعتنينا بهذا اللسان العربي لهذا العهد واستقرينا أحكامه نعتاض عن الحركات الإعرابية في دلالتها بأمور أخرى موجودة فيه تكون بها قوانين تخصها، ولعلها تكون في أواخره على غير المنهاج الأول في لغة مضر، فليست اللغات وملكاتها مجانًا»[2].

---

1. N. Chomsky, *structure syntaxique*, éd du Seuil, Paris, 1969, p. 107.

2. المقدمة، ص. 557.

بل قال بصريح العبارة : «إن صناعة العربية إنما هي معرفة قوانين هذه الملكة ومقاييسها خاصة، فهو علم بكيفيـــة لا نفـس كيفية، فليست نفس الملكة، وإنما هي بمثابة من يعرف صناعـــة من الصنائع علمًا ولا يحكمها عملاً»[1].

زوال الحركات الإعرابية ليست دليلاً على فساد العربية

وابن خلدون لا يرى في زوال الحركات الإعرابية في أواخر الكلم للغة عهده دليلا على فساد اللسان العربي «ولا تلتفتن في ذلك إلى خرفشة النحاة أهل صناعة الإعراب القاصرة مداركهم عـــن التحقيق حيث يزعمون أن البلاغة لهذا العهد ذهبت وأن اللســـان العربي فسد اعتباراً بما وقع في أواخر الكلم من فساد الإعـــراب الذي يتدارسون قوانينه وهي مقالة دسها التشـــيع فـــي طباعـــهم وألقاها القصور في أفئدتهم وإلا فنحن نجد اليوم الكثير من ألفـاظ العرب لم تزل في موضوعاتها الأولى، والتعبير عـــن المقـــاصد والتعاون فيه بتفاوت الإبانة موجود في كلامـــهم لـــهذا العـــهد، وأساليب اللسان وفنونه مـــن النظـــم والنصـــر موجـــودة فـــي مخاطباتهم،... ولم يفقد من أحوال اللسان المـــدون إلا حركـــات الإعراب في أواخر الكلم فقط الذي لزم في لسان مضر.

طريقة واحدة ومهيعًا معروفًا وهو الإعراب، وهو بعض مـــن أحكام اللسان»[2].

---

1. نفس المرجع، ص. 560.
2. نفس المرجع، ص. 556.

حصول الملكة بتكرار الأفعال

وبالنسبة للغة عنده أنها ملكة كانت حاصلة وثابتة في ألسنة العرب «يأخذها الآخر عن الأول كما تأخذ صبياننا لهذا العهد لغاتنا، فلما جاء الإسلام وفارقوا الحجاز لطلب الملك الذي كان في أيدي الأمم والدول وخالطوا العجم تغيرت تلك الملكة بما ألقي إليها السمع من المخالفات التي للمستعربين، والسمع أبو الملكات اللسانية،...»[1].

والملكات لم تكن لتحصل للفرْد العربي إلا بتكرار الأفعال «لأن الفعل يقع أولا ًوتعود منه للذات صفة ثم تتكرر فتكون حالاً، ومعنى الحال أنها صفة غير راسخة ثم يزيد التكرار فتكون ملكة أي صفة راسخة، فالمتكلم من العرب حين كانت ملكته اللغة العربية موجودة فيهم يسمع كلام أهل جيله وأساليبهم في مخاطباتهم وكيفية تعبيره عن مقاصدهم كما يسمع الصبي استعمال المفردات في معانيها فيلقنها أولاً ثم يسمع التراكيب بعدها فيلقنها كذلك ثم لا يزال سماعهم لذلك يتجدد في كل لحظة ومن كل متكلم، واستعماله يتكرر إلى أن يصير ذلك ملكة وصفة راسخة ويكون كأحدهمس، هكذا تصيرت الألسن واللغات من جيل إلى جيل وتعلمها.

العجم والأطفال، وهذا هو معنى ما تقوله العامة من أن اللغة للعرب أي بالطبع أي بالملكة الأولى التي أخذت عنهم ولم

---

1. نفس المرجع، ص. .

يأخذوها عن غيرهم»[1] وربما هذا النص هو حديث أكثر مما هو قديم، لأني لم أعثر على نص فيما قرأت وتصفحت يضاهي نص ابن خلدون وضوحًا وتركيزًا وإشراقًا، إن النص يمكن أن يعد نظرية لسانية كلية لأي اكتساب لغوي ذي خطاب شفوي (والسمع أبو الملكات)، إن ابن خلدون عمم في نصه كل الطرق التي تتساءل حولها اللسانيات البيداغوجية الحديثة، بما فيها عنصر المحاكاة والتقليد وبما فيها التكرار، وهو يركز على أن الملكة العربية الأولى التي كانت مصدرًا للاكتساب اللغوي لدى الفرد العربي كانت في العرب طبعًا، ولما تغير هذا الطبع صارت تلك الملكة الأولى على غير صورتها الأولى فانقلبت لغة أخرى، ربما هي هذه العامية العربية نفسها.

ولا ننسى أن الانعزال الاجتماعي والسياسي للعرب ساهم في الحيلولة «دون تسرب الفساد للسان العربي، فكان أطفالهم يرضعون من آبار لغوية صافية، فظلت اللغة تتوارث أجيالاً بالاعتماد على الطبع والسماع وحدهما»[2].

إن الاكتساب اللغوي لدى الفرد العربي المطبوع كان يكتسب الكل دون توقف أو تأمل فيما تصاغ وتبنى به تلك الأشكال اللغوية التي كانيقتنيها خلقًا عن سلف سماعًا ومشاهدة وحسًا وتجربة متكررة، ولهذا «يجب أن نفرق بين هذه القواعد علومًا

---

1. المرجع السابق، ص. 554–555.
2. بوادر الحركة اللسانية الأولى عند العرب، ص. 9.

اصطلاحية وبين كونها وظائفلسانية ذات غاية بنيوية معينة بكل ما يدخل فيها ويحيط بها من عناصر مختلفة، إذ العربي أي عربي كان يدرك تمام الإدراك البنية العميقة لهذه الأشكال كلما وظفها بهذا الشكل أو ذاك، مثلما ندرك نحن اليوم البنية العميقة لعاميتنا حقيقة ومجازًا وصورة كما سمعنا وظائفها المتعددة آليا دون أن نتردد لحظة في فهمها، والعربي كان أدرك لفصحاه من إدراكنا نحن اليوم لعاميتنا»[1] باعتبارها كانت فيه ملكة راسخة تنمو فيه بنموه وتستحكم في طبعه بنضجه، خلافًا لنا نحن اليوم مع عاميتنا، حيث نواجه بحصول ملكة تعليمية حسب خطاب كتابي بعد بلوغ سن معينة عسى أن تقترب ملكتنا الجديدة من الطبع العربي الأول.

الآلات الحسية والعادات في الاكتساب اللغوي

إننا نستوحي من أحد أقوال محمد بن سلام الجمحي : «وللشع صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم والصناعات، منها ما تثقفه العين، ومنها ما تثقفه الأذن، ومنها ما تثقفه اليد، ومنها ما يثقفه اللسان»[2] أن هذه الالات الحسية (أدوات : سمعية، بصرية، لمسية، ذوقية).

كلها كان «يعتمد عليها العربي قبل وضع القواعد لصناعة ما يرغب فيه من تراكيب إلى جانب العادات اللسانية على كيفية أو

---

1. العربية بين الطبع والتطبيع، ص. 23 .
2. طبقات الشعراء، ابن سلام، ج1، ص.5.

أخرى جاءت الصناعة على نحوهما،... وعلى ضوء ما تثقفه أذنه ولسانه من جديد يهتدي إلى صناعة لسانية جديدة نسبيًا، وهذا في إطار محيط لغوي واحد، وفي إطار عادات لسانية متشابهة ومن أصل واحد، أما إذا اختلف المحيط اللغوي مع اختلاف العادات والتقاليد اللسانية كليًا فهذا شيء آخر»[1].

إن العادات الواسعة والمتوارثة في محيط لغوي مشترك وما صحبها من سلوك لساني متشابه قائم على كيفيات متناظرة وبنيات لغوية نواتيه في الذهن والاستعمال،... لعبت دورها العفوي والفعال في اكتساب الفرد العربي تلك الملكة اللسانية التي ظلت العادات اللسانية في التخاطب والأداء على مراحلها البعيدة والقريبة تسيرها وتكيفها وتكنفها بالرعاية والاهتمام، بحيث كانت تلك العادات «وحدها التأليف الشفوي الذي ظل يقوم مقام التأليف الكتابي»[2].

ومع خضوع العربي المطبوع إلى تلك العادات اللسانية العامة والمتواضع عليها والتي بدأت تنطفئ وتخبو تدريجيًا، فإن الفرد منهم ربما خرج قليلا أو كثيرًا عن جزء من طبيعة كلامية، لكنه في الآن ذاته يبقى متمسكًا بالنظام العام الذي يكيف به كلامه أي باعتباره متكلمًا أصليًا يمتلك ناصية كفاءته اللغوية قدرة وأداء فإنه ينطلق دائمًا من جملة أصلية نواة يولد منها ما يحتاج من

1. العربية بين الطبع والتطبيع، ص. 24.
2. نفس المرجع، ص. 25.

جمل لا متناهية[1]، ولربما احتمل الواحد منهم قبح الكـــلام حتـــى يضعه في غير موضعه على حد ما أورده سيبويه[2] لكن الجـزء لا يقوم دليلا على المنظومة اللغوية كلها على الرغم مـــن أنـــه قـــد يصبح ظاهرة متفشية في المنظومة لا يلبث الكل أن يتبناها ولـــو كظاهرة لسانية فردية غريبة ووجود بدائـــل تـــؤدي وظيفتـــها الفونولوجية أو المورفولوجية أو السانتكسية.

لم تكن العربية نسخا متماثلة

ولم يعد اليوم صعبًا علينا، بفضل الوثائق التي نملك عن هـذا الاكتساب اللغوي الشامل، أن نجزم بأن العربية لم تكن دائمًا نسخًا طبق الأصل بين استعمالات وارثة وموروثـــة، ولكنـــها كـــانت تخضع في كل حال وهي تنمّى من الداخل «لمَنهجيـــة تواصليـــة بدوية واحدة سواء اعتبرنا مقتضيات هذا المنهجيـــة التواصليـــة عفوية أم اصطلاحية أم تعليمية،... ومن المؤكد في هذه التنميـــة أنها كانت تنمى عندهم ميدانيًا : أفقيًا وعموديًا في الآن ذاتـــه،... وأعتقد أن الأمثال الشعبية تقفنا على أصـــدق الميـــادين اللغويـــة ومجالاتها ومميزاتها»[3].

ليست الملكات مجانًا

لكن كما قال ابن خلدون : «ليست الملكات مجانا» وانطلاقًـــا من هذه المقولة فإنه ينكر أن يكون كل من الإعـــراب والبلاغـــة

---

1. المرجع السابق، ص. 82-83.
2. ينظر الكتاب ج1/ص. 31-32.
3. العربية بين الطبع والتطبيع، ص. 143-144.

أمرًا طبيعيًا عند العرب أصحاب الملكة اللسانية الأصلية التي وصلنا بها تراثهم، كما أنه ينكر أن يكون العرب قد نطقوا بالطبع «وإنما هي ملكة لسانية في نظم الكلام تمكنت ورسخت فظهرت في بادئ الرأي أنها جبلة وطبع»[1]، وهي إنما تحصل بممارسة كلام العرب وتكرره على السمع (والسمع أبو الملكات). التقاطع بين الملكات واللغات.

غير أن ملكة لسانية إذا سبقت بملكة لسانية أخرى لا تحصل إلا ناقصة مخدوشة «وإن فرضنا أعجميًا في النسب سلم من مخالطة اللسان العجمي بالكلية وذهب إلى تعلم هذه الملكة بالمدارسة فربما يحصل ذلك لكنه من الندور بحيث لا يخفى عليك بما تقرر...»[2] فإن عرض لك ما تسمعه : «من أن سيبويه والفارسي والزمخشري وأمثالهم من فرسان الكلام كانوا أعجامًا مع حصول هذه الملكة لهم فأعلم أن أولئك القوم الذين تسمع عنهم إنما كانوا عجمًا في نسبهم فقط، وأما المربي والنشأة فكانت بين أهل هذه الملكة من العرب ومن تعلمها منهم، فاستولوا بذلك من الكلام على غاية لا شيء وراءها، وكأنهم في أول نشأتهم من العرب الذين نشأوا في أجيالهم حتى أدركوا كنه اللغة وصاروا من أهلها، فإنهم وإن كانوا عجمًا في النسب فليسوا بأعجام في اللغة والكلام كأنهم أدركوا الملكة في عنفوانها واللغة في شبابها، ولم تذهب آثاراً لملكة ولا من أهل الأمصار»[3] ولا حظ ابن

---

1. المقدمة، ص. 562.
2. المرجع السابق، ص. 564. وانظر كذلك في نفس السياق، ص. 568–569.
3. نفسه، ص. 563–564.

خلدون أن هناك لغة ثالثة تدور بين الناس ليست هي بلغة مضـــر القديمة ولا بلغة جيل عصره، وإنما هي لغة قائمة بذاتها بعيدة عن كل من اللغتين المذكورتين «فأما أنها لغة قائمة بنفسها فهو ظـاهر يشهد له ما فيها من التغاير الذي يعد عند صناعة أهل النحو لحنًا، وهي مع ذلك تختلف باختلاف للأمصار في اصطلاحاتهم، فلغـــة أهل المشرق مباينة بعض الشيء للغة أهل المغرب، وكذا أهـــل الأندلس معهما، وكل منهم متوصل بلغته إلـــى تأديـــة مقصـــودة والإبانة عما في نفسه، وهذا معنـــى اللســـان واللغـــة، وفقـــدان الإعراب ليس بضائر لهم كما قلناه في لغة العرب لـــهذا العـــهد، وأما إنها أبعد عن اللسان الأول من لغة هذا الجيل، فلأن البعـــد عن اللسان إنما هو بمخالطة العجمية فمن خالط العجم أكثركـــانت لغته عن ذلك اللسان الأصلي أبعد لأن الملكة إنما تحصل بالتعليم كما قلناه، وهذه ملكة ممتزجة من الملكة الأولى التي كانت للعرب ومن الملكة الثانية التي للعجم، فعلى مقدار ما يسمعونه من العجـم ويربون عليه يبعدون عن الملكة الأولى، واعتبر ذلك في أمصـــار إفريقية والمغرب والأندلس والمشرق،...»[1].

الاكتساب بين العامية والفصحى

إن الاكتساب اللغوي بالنسبة للفرد العربي إذاً تغير مما ألفنـــاه وهو في عهد سليقيته إلى اكتساب ازدواجي مـــن حيـــث ملكتـــه الأصلية والملكة الواردة عليه فتكونت له لغة هي وسط، لكن هـذه اللغة : أهي العامية نفسها أم لغة أخرى ؟ وهل لغتنا المعـــاصرة

---

1. المرجع السابق، ص. 558.

التي اكتسبناها من أفواه المحيط وجدران المدارس والصحف،... هي اللغة المضرية عينها أم فقط هي قريبة منها ؟ إن مجرد الشك فيما يتلفظ به الإنسان الراشد هو شك في وجوده من الأساس، غير أن هناك إشكالية أثارها ابن خلدون تتعلق بعدم جدوى حركات الإعراب في اللغة العامية، لكننا لا ننساق مندفعين من هذه الفكرة ضاربين صفحًا عما قدمته الملكة اللسانية الأولى من خدمات كبيرة للملكة اللسانية الثانية والتي صارت اليوم في مجتمعنا ملكة أولى حيث حلت فينا بطبعها محل الأولى، ومن هذه الخدمات أن المكتسب للعامية سبق لمن تقدمه من المتلقين والمتكلمين أنهم قد استفادوا من تراكيب أصلية سليمة الملكة اللسانية ثم نقلت مشوهة في خطاب شفوي منحرف عن ذلك الخطاب الشفوي الأصلي الصحيح، ولذلك ظلت الدلالة هي الدلالة مع سقوط الإعراب شكليًا، لكن الإعراب ظل ضمنيا في العامية العربية قل من يفطن إليه، أريد أن أقول من وجهة سانتكسية أن كل هذه الجمل الغُفّل من الحركات الإعرابية مولودة من جمل نواتية عميقة البنية سليمتها :

1. كَسَّرَ الغُلامُ الزجاجَ
2. كسَّرْ الغلام الزجاجْ (أو الزاجْ بالعامية الجزائرية)
3. الغلامْ كسرْ الزجاجْ
4. الزجاجْ كسّرْ الغلامْ
5. كسّرْ الزجاجْ الغلام

بالنظر إلى هذه الجمل الخمس أعلاه أن الجملة الأصليـــة(1) هي التي كانت منطلقًا للجمل المولدة عنها والتي فقدت حركـــات إعرابية، والجمل العامية هي العالة دلاليا ونحويًا علـــى الجملـــة الأصلية، ثم لننظر كيف أن الجملة (5) في العامية غير مقبولـــة دلاليًا على الرغم من أنها مقبولة سانتكسيًا، لأن الجملة المولدة :

6. كسَر الزجاجُ الغلامَ

غير مقبولة دلاليًا على الرغم من أنها صحيحة نحويًا.

والجملة الرابعة في العامية غامضة بينما هي في الفصحـــى غير كذلك حين نقدر المفعول المقدم، لكن بنسخ من هذا التقديـــر الأخير المقبول في السانتكس العربي تصبح ذات الجملـــة غـــير غامضة في العامية أيضًا، وهذا ما فات ابن خلدون والكثـــيرين الذين وقفت لهم على كلام مشابه.

ملكتان : أصلية وفرعية

وعلى هذا فإن الملكة اللسانية الأولى بالنسبة لنا في عاميتنـــا ليست مجاناً ــ باصطلاح ابن خلدون ــ بـــل هـــي اســـتعمالات متناسخة من جهة وقواعد خطابية إبداعية وفـــق تلـــك اللســـانية العربية الأصلية بجميع أصنافها من جهة ثانية، وهـــذه القواعـــد ضمنية، كما كان الشأن بالنسبة للعربية المطبوعة، سوى أننا فـــي هذه الأخيرة نبديها ولربما تتحذلق أحيانا ونتفخفخ فيها باعتبارهـــا صارت فينا نظامًا من السلوك المكتسب بتصنع وتكلـــف، وفـــي

العامية لا نبدي هذه القواعد ولا حتى فكرنا يوما لطـــرح ســـؤال حولها حين يحضرنا قصد من التواصل والخطاب.

وعليه ففساد ملكة لسانية غائبة أو محذوفة فـــي صورتـــها السمعية أو الفيزياء والتي لم تعد ممكنة لإسماعها لناس صوتيا أو إبرازها فيزيولوجيا، لا يعني فساد اللسان في عمليتـــه التبليغيـــة بالجملة، ما دامت هناك ملكة لسانية أصلية ضمنية حضورا فـــي كل ما حذف أو غاب أو تبدل في سطح الخطاب العامي، وهـــذا ليس مقتصرا على اللغات المعربة وحدها بل قد يصدق على أيـــة لغة آل مصيرها كمصير العربية إلى بروز لهجات من صلبـــها، ونظامها الأصلي الخاص ببنيتها هو الذي يتكفل بعاميتها ضمنيا.

إن صعوبة تفصيح العامية إنما يعود في نظرنـــا إلـــى هـــذه الإشكالية شبه المستحيلة والتي تتمثل في تلك المحاولة التعســـفية لوضع ملكة لسانية فرعية مكان ملكة لســـانية أصليـــة، مـــع أن العامية لا تخلو ضمنيا من هذه الملكة اللسانية الأصلية بل يستحيل أن تقوم لها قائمة تواصلية بدونها، بينما عملية الاكتساب تكـــون مواتية لأن المكتسب له مخزون من الاستعمالات الأساســـية ذات الصلة الوثقى بكل مستويات الملكة اللسانية الأصلية.

ونتيجة لهذا، فإن المكتسب المعاصر أو منذ ظهور العاميـــات يقتني استعمالاته من ملكتين لسانيتين (إذا كان هذا المقتني متعلمـــا طبعا) متداخلتين ومتضامنتين، والغرابة بالنسبة لـــهذا المكتســـب تكمن فقط في كيفية التلقي لكل منهما باعتبار الواحـــدة محكيـــة

والأخرى مكتوبة، لكن هذا الغرابة التي ليست للفرد العربي عليها سلطان تقابلها ألفة نموذجية ضمنية كامنة في الاستعمال والعقل اللغوي، ومن هنا فإن المتعلم للمتكلمين يشمئز حين يسمع أو يعاين لحنًا أو خرقًا اشمئزازًا طبيعيًا كان ذلك بينه وبين نفسه أم أمام غيره من متعلمي هاتين الملكتين، لأن تلك الألفة النموذجية الذهنية هي التي تحس آليًا بهذا الخرق فيكون رد فعلها سلوكيًا كمثل عدم رضانا حين نرى ظاهرة غريبة تخل بالتوازن الاجتماعي، وهذا الاشمئزاز يتم على الكيفية :

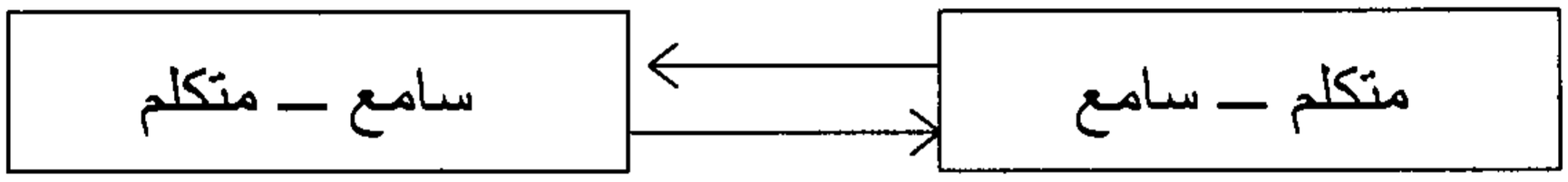

إذا كان الأمر يتعلق بخطاب شفوي، أو:

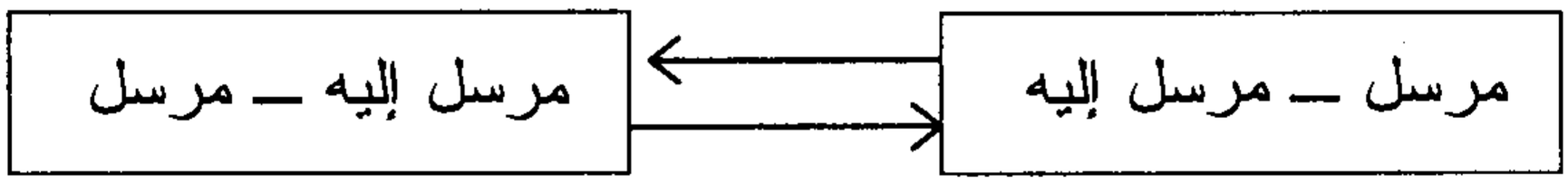

إذا كان الأمر يتعلق بتبليغ لساني عام، أما إذا كانت هذه الألفة الذهنية النموذجية تتم بين المتلقي لمرسلة مخروقة، فإن الانفعال نتصوره على نحو :

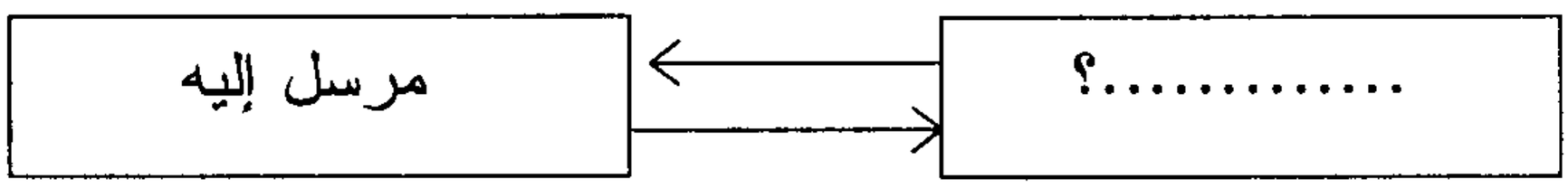

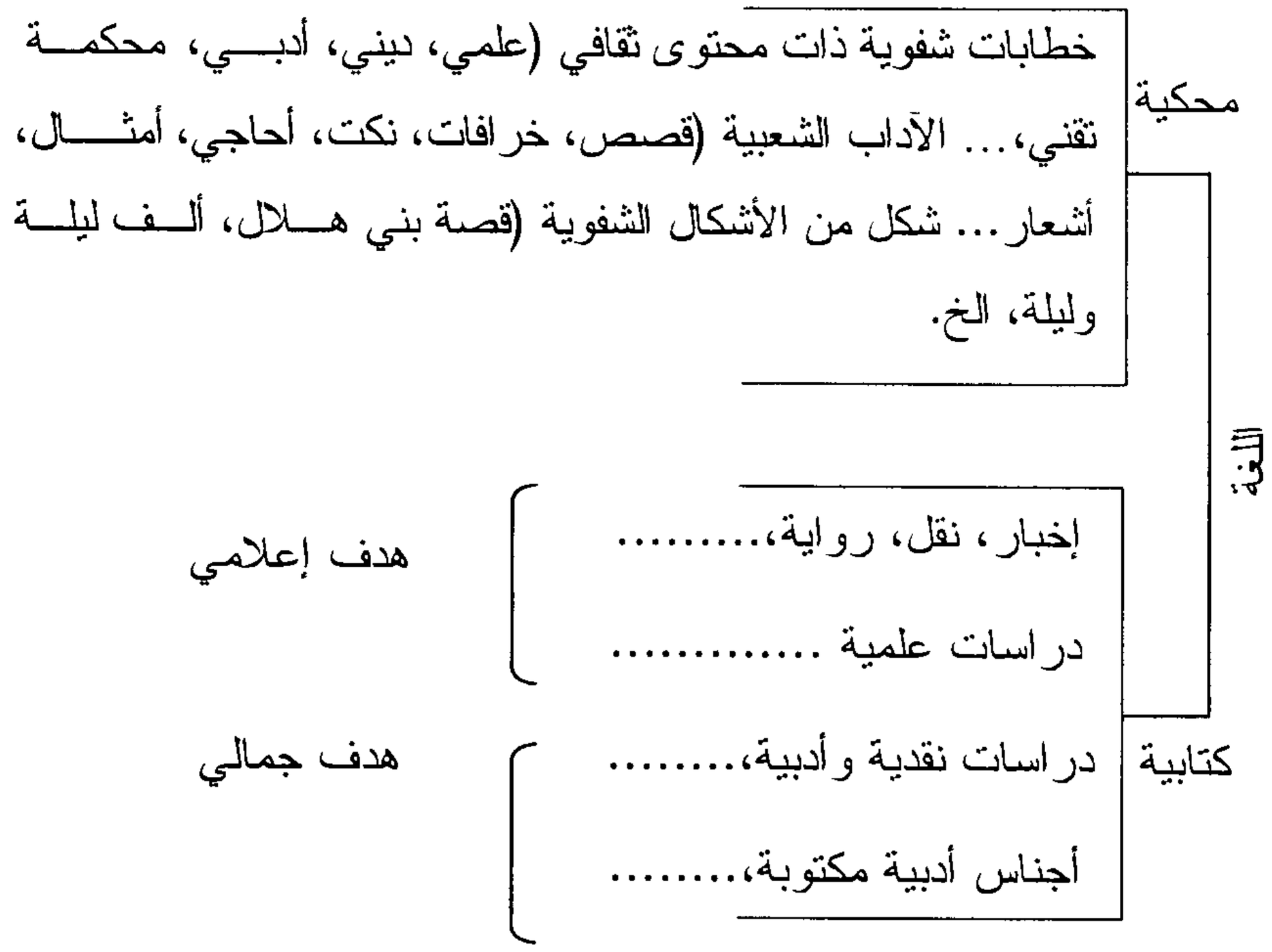

هناك بنية لسانية نموذجية واحدة

وهذه الألفة الذهنية النموذجية هي التي تمثل البنية العميقة داخل كل مجموعة لسانية على حدة، وليس من الضروري بل من المستبعد جدًا أن تكون موحدة على مستوى لغة واحدة، ولكنها ــ أي هذه البنية العميقة ــ تظل موحدة ضمنيًا بين كل المجموعات اللسانية على مستوى نفس اللغة،فالبنية السطحية لحجازي أو شامي قد تختلف عنها لدى مغاربي من حيث صياغتها وشكلها وعاداته المحلية في توليدها وتحويلها، لكنها من حيث البنية العميقة تظل ذات فضاء ضمني مشترك بل ومتضامن سواء شعر هؤلاء المتكلمون هنا وهناك أم لم يشعروا.

ولما كان الفرد العربي القديم يقتني من ملكة لسانية واحدة لم تكن له أكثر من بنية نموذجية، وما يتولد منها كان في الغالب الأعم نمطًا لسانيا واحدًا، إلا مجال الكيفية والإبداع، ومن ثم وقع المعبرون في هفوات لسانية في كل المستويات، ولم يجدوا من ينبههم علميًا إليها. وإذا كان النابغة قد نبّه على ما وقع فيه من إقواء على الفطرة، فإنما كان مصدر التنبيه من المدينة وليس من البادية ذات الملكة اللسانية الواحدة، وما يحكى من بعض الالتفاتات الأخرى للتركيب لم يكن أكثر، إن صح ذلك فعلاً، من إعجابات جمالية ساذجة، لأن البنية النموذجية لمجتمع قد تتعدى اللغة إلى أنماط أخرى من الحياة والسلوك.

تنظيرات لسانية للغة الإنسانية

قراءة أولية

لقد سبق لنا خلال هذا العرض أن تعرضنا بشكل غير مباشر إلى مس خفيف من الحديث عن اللغة تبعًا لما كانت تقتضيه المادة والمنهج، وكنا نحاول التجنب عن هذا الموضوع ليقيننا بأن اللغة كوسيلة من وسائل التبليغ هي غير ما يحيط بها، وأكدنا على ظاهرتها الاجتماعية المتجلية في الاستعمالات وليست مختزنة في الأدمغة كما ذهب إلى ذلك سوسور، لأن الدماغ الإنساني يتعامل مع اللغة كمنظومة مجزءة إلى بنيات ذهنية نموذجية وليس معها كنظام كلي دفعة واحدة، وكم كان بعض العرب عباقرة حين قال : «كلام العرب لا يحيط به إلا نبي»[1]، وهذا القول كما قال ابن

---

1. فقه اللغة، ابن فارس، ص.47.

فارس حريْ أن يكون صحيحًا[1] لم يمض أحد ممن ادعى حفظ اللغة كلها، وهي ملك للاستعمالات وحدها، وليست ملكا أبدًا أو حكرًا على أدمغة معينة واكتسابها لا يكون من هذه الأدمغة المزعومة عند سوسور بل من الاستعمالات المباشرة التي تكون أو تشكل نموذجًا عميقًا مشتركا لاستعمالات فضائية أخرى غير مباشرة أي الكلام في حد ذاته عملية إبداعية وليس فقط نمطًا من الإنتاج، لكنه مستويات، والرسم الذي قدمه تشومسكي للبنيتين العميقة والسطحية على هذا النحو[2].

الأساس ← البنية العميقة ← المولد المعنوي ← معنى

المولد البنيوي < المولد التحويلي

↑

البنية السطحية ← المولد الصوتي ← لفظ

غير مسوغ لدينا في شقه الأول الخاص بالبنية العميقة، إلا إذا قصد بهذا البيان تقريبها لنا من فضائها الغائب، لأن البنية العميقة في كل ملكة لسانية يفترض فيها أنها جاهزة وستكون حاضرة أو ماثلة أمَامَنا بمجرد التفكير العفوي (في الخطاب الشفوي العادي) أو الصناعي (في التعبير الكتابي، لا سيما المتكلف منه) للإقدام على تبليغ من الآنا إلى الآخر أو العكس، لكن ليس من السهل تحديد البنية العميقة دائمًا في هذه الحالة، إذا كانت هناك بنيتان

---

1. نفسه، ص. 47.
2. علم اللغة : دانييل مانيس : الموقف الأدبي، عدد 136، عام 1982، ص. 222.

متماثلتان أو أكثر، لكن المؤكد أنه لا تحضرنـــا، لا واحـــدة فـــي توصلنا الطبيعي، وهذا هو الأهم بالنسبة لنا.

ولاحظنا فيما مضى (الفصل الفارط) كيف أن ابن خلدون قـد فرق بين مفاهيم لسانية خطيرة من حيـــث البحـــث أو المنـــهج والاصطلاح لامن حيث طبيعة التواصـــل، ممـــيزًا بيـــن اللغـــة وقوانينها.

وظلت اللغة منذ نهضة الأوروبيين تخضع لتعريفات غالبًا ما تنظّر وفق أفكار واتجاهات منظّريها، وكل نظرية لاحقة تفنـــد أو تعارض النظرية السابقة، وليس في الأمر بدعة لأن هـــذه الأداة ليست حكرًا ولا وقفًا على زمن دون زمن.

النظرية البيولوجية والطبيعية

يجب الاعتراف بأن هذا المشكل لم يبق مطروحًا بحدة ابتـداء من المنعطف الثاني للقرن الثامن عشر أو بداية القـــرن التاســـع عشر حيث تقدمت العلوم البيولوجية والطبيعة وعلـــم أمـــراض الكلام وعلم الحيوانات بشكل معتبر، مما مكن علوم اللغة تنـــاول هذه الظاهرة من وجهة علمية أكثر دقة لأنه ابتـــداء مـــن هـــذه اللحظة شرع عدة لسانيين يباشرون أعمالهم بصورة تنكشف معها الأعمال، حيث اضطر اللسانيون إلى مراقبة خطواتـــهم العلميـــة والمنهجية وأحكامهم المسبقة أو الوهمية، وذلك بناء علـــى هـــذا التطور الذي حدث في الأدوات المتحررة من الوهم خارج اللغـــة في حد ذاتها، وخاصة لدى اللغويين الألمان من بينـــهم أوقشـــت شليجل (Auguste shleicher) الذي حاول أن يؤسس شجرة ســـلالية

(arbre généalogique) للغات الهندية ــ الأوروبية، وكانت أطروحة شليجل على مبدأ أن كل لغة تتصرف مثلها يتصرف جهاز عضوي، يمكن له أن يحتمل تطورات وتغييرات في بنيته نفسها، وفي لغات أخرى يمكن أن يمارس تأثيرًا عليها، بالنسبة لشليجل، فإن اللغة موضوع طبيعي قابل لنفس الدراسة لنبتة أو حيوان، و بهذا المعنى يجب أن تخضع إلى ملاحظة مدققة ومباشرة حسب منهج تجريبي[1].

وهكذا، فإن شليجل منذ أن نشر أطروحته عام 1863، سارت فكرته البيولوجية هذه في ألمانيا وخارج ألمانيا، وساد الدراسات اللغوية، اعتقاد بأن اللغة كالنبات والحيوانات تولد وتنمو ونهرم وتموت[2].

نلاحظ أن هذه النظرية تضعنا في واقع الأمر بأن شليجل كان متأثرًا إلى حد مطلق بالعلوم الطبيعية، لكن اللسانيين رفضوا هذه الأطروحة، ولا سيما منذ ظهور كتابِ اللسانيات العامة لسوسور وحلقات لغوية هنا وهناك، ولم يعد اليوم أحد يعترض على أن اللغة ماهي إلا إحدى الوسائل المتواضع عليها للتبليغ بين الناس، ولربما كانت الوسيلة الوحيدة وإن اختلفت أشكال التبليغ.

ومن غير المعقول قبول مقولة شليجل، لأنه لا يمكن اعتبار ظاهرة حي متحرك نظيرًا لجسم أم كائن آخر جامد، لأن لغة ليس لها أي استطاعة لتكون متحركة أو حية إلا داخل كائن آخر، وهو

---

1. راجع التحولات الجديدة للسانيات التاريخية، ص. 104.
2. Bertil Malbe, *Les nouvelles tendances de la linguistique*, Presses universitaires de France, Paris, 1972, p. 23.

الإنسان لكن أي إنسان. ويمكن أن نتصور، وهذا أبعد ما يمكـــن، فكرة أخرى بأن هذا اللغوي الألماني لم تكن له نية غير تفضيلـــه للوسائل العلمية الجديدة الأكثر فعالية والتي تمكننا مـــن معالجـــة اللغة وفق أعمال تجاربية بنفس الفعالية التي نعالج بـــها ظواهـــر أخرى في عالم الطبيعة.

وعلى الرغم من هذا التصور الأخير المحتمل مـــن بعـــض الوجوه، فإن النوع المتحرك أو الحي ينبغي أن يبقى دائمًـــا فـــي محور معارض لنوع آخر جامد، ذلك أننا على المستوى التطبيقي لا نعالج النوعين بنفس الكيفية، فنحن حين ندرس نبتـــة نعالجـــها بكيفية لذاتها، لأن نبتة، على الرغم من هذا تملك نوعية ظـــاهرة شيء متحرك أو حي في عالمها النباتي بتباين مع شيء آخـــر لا يملك أي نوعية للحياة، ربما من أجل هذا فـــإن كـــل المنـــاهج المتعاقبة التي مارست هذه الأداة التبليغية بقيـــت مذهلـــة أمـــام محاولة فصل اللغة عن محيطها حتى خلال دراستنا إياها، ومـــن هنا أشار سمير نيتسكي إلى أن اللغة الداخلية تعد ثانية، بالنســـبة إلى اللغة الخارجية، وفي مسار اللغة الداخلية أن الشكل المـــادي لها، أي الجرس الصوتي للكلمة يحل محله الإدراك النفسي لـــهذا الجرس الصوتي الذي يحقق نطـــق الكلمـــة[1] ويعلـــق العلامـــة السوفياتي (سابقا) بانفيلوف (painflov) قـــائلا : «علـــى أن رأي "سمير نيتسكي" كما أوردناه آنفًا، يتضمن مع ذلك فكرة صائبـــة، وهي أنه من الخطأ اعتبار اللغة الداخليـــة شـــيئًا ســـابقًا للغـــة

1. دراسات لغوية في ضوء الماركسية، ترجمة، د. ميشال عاصي، ص. 42.

الخارجية، لغة النطق والواقع أننا إذا اعتبرنا اللغة الداخلية واللغة الخارجية من وجهة نظر العلاقات التاريخية فيما بينها، فمن المؤكد أن أولى عمليات التفكير لدى الأسلاف البدائيين للإنسان كانت تتم فقط على صعيد اللغة الخارجية، وليس إلا فيما بعد، وكلما تطورت وترسخت عاد التلفظ في أعضاء جهاز النطق لدى الإنسان البدائي، كانت تظهر إمكانية انتقال التفكير إلى صعيد اللغة الداخلية»[1].

وربما لاحظ هذا أيضًا جوزاف فندريس حيث بث شكواه : «يقولون دائمًا بأن مشكل أصل اللغة ليس مشكلا ذا طابع لساني مع أنه تعبير الحقيقة... معظم من كتبوا عن أصل اللغة منذ مائةعام لم يكونوا إلا تائهين،.. إن اللسانيين يدرسون اللغات التي يتكلمون والتي يكتبون»[2] لكن فندريس نفسه أعطى اللغة أكثر من تعريف تبعًا لتنوع وسائل التبليغات المختلفة والمتشعبة لمفهوم اللغة باعتبارأن فندريس يعتقد أن هناك عدة لغات.

ودون استبعاد كلي للعوامل الخارجية المنتمية إلى المجموعة الإنسانية التي تمارس هذه اللغة أو تلك، فإنه مما يبدو لي واقعيًا أن الأكثر عقلانية أو القريب من الاحتمال الممكن للغة لا يمكن إلا في اللسانيات نفسها، ولهذا يحاول بعض علماء اللسانيات التطبيقية اليوم أن يعرّف اللغة تعريفًا متزامنًا أي من خلال الاستعمالات اليومية : "لنحاول تعريف اللغة انطلاقًا من تلك التي

---

1. المرجع السابق، ص. 4.
2. Edward Sapir, *Le langage*, Petite bibliothèque Payot, Paris, p. 17, J.V.

تمارسها يوميًا : إنك تتكلم الفرنسية تلقائيًا بفرط العادة، وإنـــك لا تفتحص عندما نتكلمها ماذا تصنع، إنها مجموعة من الحركـــات التي تعرف تنفيذها، لكلنك لا تعرف كيف تنفذها"[1].

إن كل تعريف للغة وتطورها خارج الميكانيزمات الاجتماعية يبقى حقلا وهميًا «إن المشكل كما هو مطروح علينا اليوم، هـــو نفسه كما كان منذ ستين سنة، وأن العوامل التجريبية التي تشترط التغييرات التاريخية هي دائمًا غير مؤكدة، خمسة أسئلة تمكن من تلخيص المشاكل الأساسية لتطور اللسانيات :

1. هل التطور اللساني موجّه ؟
2. ماهي القيود الشاملة التي تعترض التغيير اللساني ؟
3. ماهي الأسباب التي تجعل التغييرات اللسانية الجديدة تبرز بشكل غير منقطع ؟
4. ما هي الاواليات لهذه التغييرات ؟
5. هل التطور اللساني يملك وظيفة من الاقتباس ؟»[2].

إن النزعة الطبيعية التي سادت المدرسة الألمانية وتفشت عند لغويي القرن التاسع عشر، حتى ولو لم يصرحوا بذلك علنًا لـــم تكن تستجيب فقط إلى تطور العلوم الطبيعية بل حتى إلى المنطق الأرسطي الموروث، وحتى الذين هاجموا هذا الاتجاه الطبيعـــي التطوري الذي كان مصدره داروين وشليجل فإنهم لم يســتطيعوا

---

1. D. Gérard, *Linguistique appliquée et didactique des langues*, éd Armand colin.
2. William Labov, *Sociolinguistique*, les éditions de minuit, p. 231-232.

أن يتخلصوا منه كليًا، من ذلك أن وليام داويت وايتيني الذي يوصف بأنه ذو فكر ثابت ومناضل والذي «عارض كل المذاهب الدارجة في عصره، لقد عارض شليجل الذي جعل من علم اللغة علمًا طبيعيًا يفسره النموذج الدوراني، وعارض ماكس مولر الذي برع في الكتابة فيما كانت معالجة سطحية جدًا، كما عارض أيضًاما تبقى في ذلك الوقت من تأثير هومبولد ونظريته التي ترى في اللغة ميتافيزيقيًا لعبقرية الشعوب والأفراد»[1] عاد فتورط في المبدأ نفسه الذي انتقد فيه الآخرين فهو قد تساءل، كيف تعمل رموز اللغة ؟ ثم يجيب «اللغة كالجسم العضوي، فهو ليست تلاصق جزئيات متشابهة، بل هي مجموعة أجزاء يرتبط بعضها ببعض ويعاضد بعضها البعض»[2] ويقول في موضع آخر مشابه : «اللغة، الحقيقة، نظام كبير من البنى المعقدة جدًا، والمتوازنة، وهي تقبل تمامًا لمقارنة مع جسم منظم»[3].

غير أن انتقادات وايتني لشليجل وماكس موسر بأن اللغة واقعة اجتماعية وليست واقعة طبيعية وصفة بيولوجية، لم تجد كثيرًا، ووصلت هذه النظرية البيولوجية أوج متاهتها على يد عالم لغوي آخر هو دار ميستيتار الذي قال في كتابه (حياة الكلمات : «الأمر البديهي اليوم هو أن اللغات عضويات حية، حياتها حقيقية

---

1. علم اللغة ص. 14.
2. نفس المرجع، ص. 19.
3. نفس المرجع، ص. 19.

ويمكن أن تقارن مع حياة عضويات النبـــات والحيـــوان، رغـــم طابعها الفكري المحض»[1].

النزعة العرقية

وربما كانت هذه النزعة البيولوجية إزاء اللغة أسلم منـــهجيًا من كونها ليست منغمسة فـــي رؤيـــة مثاليـــة ولا فـــي ورطـــة إيديولوجية، فشليجل مثلا كان يعتبر بأن اللغات كان لها تطـــور مستقل عن العضويات الحية ثم حاول أن يرسم تطـــور اللغـــات بواسطة السلالات، فقسم اللغات في العالم إلى ثلاثة أنواع[2] :

1. لغات عازلة أو متقطعة (langues isolantes)
2. لغات مركبة أو لاصقة (langues Agglutinantes)
3. لغات متصرفة أو معربة (langues flexionnelles)

فبالنسبة إليه «كل عائلة لسانيّة كانت تمر تترى من مرحلة إلى أخرى لتصل في النهاية إلى أوجها وفي حالة أكثر صفاء»[3].

---

1. نفس المرجع، ص. 17.

فالأولى أن تكون العبارات فيها مؤلفة من كلمات مبنية ولا سيما وحيـــدات المقطـــع مثل الصينية، والثانية تكون مركبة أولاصقة مثل التركية، والثالثة تكون متصرفـــة مثل العربية.

2. يراجع، (C.L.G) Carol Sanders, *Lire aujourd'hui*, p. 10

وقارن ب ــ : التحولات الجديدة للسانيات التاريخية، ص. 112–114.

3. نفس المرجع السابق.

وعلى ما يشتم من أثر داروينـي فـي فكرة شليجل الأخيرة، فإن النظرية البيولوجية التي دحضها اللسانيون المحدثون كانت ــ كما أشرنا ــ منهجية إلى حد ما، والخطأ أو الصواب يبقى في فكـــرة النظرية فقط، ومع ذلك تظل أسلم نسبيًا من الناحية المعارفيـــة إذا ما قيست بنظرية بعض علماء الإثنوغرافيـــا، «وخصوصًـــا في ألمانيا، متعجلين جدًا في إقامة الصلة بين بعض البنيات اللغويـــة وبين مجموعات من الظاهرات الاجتماعية المدروسة في صـــورة سطحية وبالغوا في اعتماد وجهة النظر المرتكزة إلى "علم نفـــس الشعوب"»[1]، مما جعل بوريس سربرنيكوف يخرف قائلاً : «وهكذا فالمجتمع الذي يبني الشيوعية في هذه الفترة يمتلـــك لغـــة أكـــثر تطورًا بما لا يقاس من لغة عصر العشائر والقبائل»[2]. وهو يريـد بهذه الكيفية الإيديولوجية أن يقارن أثر الشيوعية وقوتها بأثر وقوة الثقافة الإسلامية التي تبنتها الشعوب المفتوحة، لأنه قال بعد حيـن في نفس السياق : «ومن هنا فإن وجود عدد وافر مـــن مفـــردات عربية في اللغة الإيرانية، يمكن تفسيره على أساس التأثير العميق الذي مارسه الإسلام والثقافة العربية[3]».

وهذه بديهية لا ينكرها أحد، لكن ما نراه كذلك أنّ اللغة ليـــس إجباريا أن تؤثر فقط بفعل عوامل تاريخية وسياســـية ودينيـــة...

---

1. دراسات لغوية في ضوء الماركسية، ص. 74.
2. نفس المرجع، ص. 10.
3. نفس المرجع، ليس إجبارا أن يشترك في انتشار لغة أو كلمات منـــــها بفعـــل علاقات تاريخية وسياسية بين الشعوب، ص. 10.

هناك شعوب كثيرة تبنت كلمات عربية عديدة ولم تكن لها علاقة مع العرب، لكن اللغة عنصر حضاري مستقل حتى عن ثقافتها الجغرافية أحيانًا، وهي إن كانت إنتاجيا تاريخيًا معقدًا فليست في الآن ذاته إنتاجًا ماديًا، ليس هناك شئ أقل سهولة من نقل لغة، وليس مشروطًا لها أن تنقل بحدث جماعي أو تاريخي عظيم.

عمومًا، إن النزعة العرقية بدورها سادت عقليات قديمة وجديدة تحت تأثير الإثنوغرافيا والأنتروبولوجيا، محاولة لإيجاد «علاقة بين اللغة وبين عقلية الشعب الذي يتكلم هذه اللغة أو تلك، وحاولوا أن يجدوا في اللغة ولا سيما في تركيبها، أي في صرفها ونحوها، انعكاسا للميزات العرقية والأخلاق والمثل والنظرة إلى الحياة عند الشعب الذي يتكلم هذه اللغة»[1] حتى إن إرنست رينان حكم حكمًا بهلوانيا على نقص العقلية لدى الشعوب السامية من خلال دراسته للغة العبرية بوجه خاص، وهناك ألماني آخر بحث ألفاظًا مختلفة وما تعكسه من صور ذهنية متطابقة حسب زعمه، والشعب الذي يتكلمها، ومن هذه الألفاظ لفظة (intéressant) (مفيد أو مثير الاهتمام) حيث يقول : «إن هذه اللفظة الغربية لا يمكن أن تنقل إلى لغة سامية، وإذا نقلت فإنها تفقد الناحية الروحية العقلية التي تتضمنها اللفظة الغربية، ويعزو هذا العجز عن وضع لفظ مدلوله مدلول لفظة (intéressant) إلى طبيعة العقل السامي الذي ينقصه الشغف العقلي واللذة الروحية اللذان تعكسهما اللفظة الغربية»[2].

---

1. النظريات في اللغة، أنيس فريحة، ص. 27.
2. المرجع السابق، ص. 28.

شكوى وايتني

ولربما كانت شكوى وايتني لا تبتعد كثيرا عن هذه الأفكار السطحية والساذجة أعلاه، فبعد اعترافه بأن ألمانيا هي مدرسة فقه اللغة المقارنة أضاف أن «علماء هذا البلد أقل براعة فيما نسميه علم اللغة» إذ نجد لديهم (كما لدى غيرهم) نوعا من الخلط في الآراء فيما يخص نقاطا ذات أهمية أساسية، كما نجد لديهم بعضا من عدم الثبات في المبدأ واللامبالاة والبعد عن المنطق لدرجة يمكن أن نقول معها : إن علم اللغة لم يتكون عندهم بعد[1].

ردود سابير على هذه النزعة

ولقد رد على هذه النزعات العرقية إدوارد سابير ردا مفصلا، ولا يمكن أن نثبت هنا كل هذه الردود المصحوبة بأمثلة وبراهين تتعلق ببلدان وقارات ولغات بدائية وواسعة الانتشار كاللغة الإنجليزية وعلاقتها بالخليط الذي يتكلمها ماضيا وحاضرا، ولكن نجمل فكرة هذا العالم اللغوي الموضوعي البعيد عن كل تعصب[2].

بعد أن يصرح إدوارد سابير بأن اللغة تقتضي محيطا أو بيئة، يذكر بأن الشعب الذي يتكلم هذه اللغة ينتمي إلى عرق أو عدة أعراق أخرى من انتمائه لمجموعة تتميز عن مجموعات أخرى بخصوصيات فيزيائية «إن اللغة لا يمكن لها أن تكون مفصولة

---

1. علم اللغة في ق 20، ص. 14.
2. الغريب أن كتابه القيم اللغة (le langage) والذي يعد موسوعة في علم اللغة لم يترجم ــ فيما اعلم حتى الآن ــ إلى العربية في الوقت الذي ترجمت فيه كتب لغوية كلها في مستواه.

عن الطابع أو الأخلاق، أي أنها على صلة بتجمهر من العـــادات والاعتقادات التي تعتبر إرثًا اجتماعيًا تحـــدد أثـــر وجودنـــا، إن الأنثروبولوجيين دأبوا على دراسة للإنسان تحت ثلاثة أشـــكال : العرق، اللغة العادات والأخلاق»[1].

إن العلم، كما قال سابير، أكثر واقعية، بحيث ليعرف إذا مـــا كانت هذه الأشكال الثلاثة من التصنيفات صحيحة (العرق، اللسان، والطبائع) أولا، «إذا كان تجمعها لازمًا لطبيعتها أو هي فقط مسألة تاريخية، إن الجواب على هذا السؤال لا يشـــجع الذيـــن يطلقـــون أحكامًـــا مســـبقة وعاطفيـــة لصـــالح العـــرق، إن المؤرخيـــــن والانثروبولوجيين يجدون بأن الاعتراف والألسن والطبائع ليســـت متوازية إجباريا، بحيث مناطق توزيعها تتقاطع بطريقة مذهلة جدًا، وأن تاريخ كل واحد منها له ميل لأن يكون مستقلا عن الآخريـــن، إن الأعراق تمتزج بشكل مختلف عن الألسن ؛ من جهة أخـــرى، فإن الألسن يمكن أن تتمدد أبعد بكثير من مهدها الأولـــي كاســـحة أراضي أعراق جديدة ومناطق حضارية جديدة، إن لساناً يمكن لـــه حتى أن يخمد في منطقته الأولية ليدوم بين العشائر الأكثر عـــداوة لمن كانوا يتكلمونها أصلاً، يجب أن تقتنع، مـــرة واحـــدة، بـــأن العرق، في معناه الوحيد والمفهوم، والذي له معنى بيولوجي، هـــو مختلف مطلقًا عن تاريخ ألسن وحضارات وهذا التاريخ غير مفسر أبدًا حسب العرق ولا حسب القوانين الفيزيائية أو الكيماوية[2]».

---

1. Edward sapir, *Le langage*, Petite Bibliothèque Payot, Paris, p. 203.
2. السابق، ص. 204، وواصل إلى غاية، ص. 215.

ويرد سابير ضمنيًا على هذه النزعة العرقية التي تولدت عنها، كما هو الشأن في ألمانيا، ولدى عقول مفكرين غربيين متعصبين وعاطفيين، نزعة مثالية جوفاء، قادتهم إلى الشعور بالتفوق والعظمة حتى تكونت في نفوس بعض قادتهم روحًا عدوانية، إن اللغويين الألمان مثلا ليسوا أبرياء عن مسؤولية هتلير.

المهم أن الدراسات الدقيقة والنزيهة أثبتت منذ مدة بأن أقسام اللسانيات والتاريخ الذي صحب هذه الأقسام خيبت آمال هذه النزعة العرقية التي تربط اللغة وخصائصها بعبقرية عرق من الأعراق، وباتت اليوم أنها اعتقادات عاطفية تغمرها أهداف ميتة وغامضة في حق شعوب وعشائر لم تنهض على أقدامها بعد.

فرديناند دي سوسور مؤسسا للسانيات الجديدة

إن التعريف الأكثر علمًا ووضوحًا وإقناعًا حتى الآن للغة هو تعريف فرديناند دي سوسور الذي حاول أن يطوي صفحات اللسانيات التاريخية والدراسات المقارنة ونظريات قديمة بالنسبة إليه مثل نظريات بورورويال أو معاصرة مثل نظريات النحويين الجدد أو الشبان الذين تصادف مع إنشائهم هذه الجمعية الفقلغية وهو في ألمانيا التي كانت في هذه الفترة مركزًا لدراسات اللغة الهندية الاوروبية، وفي جامعة ألمانيا العريقة (leipzig) نشر سنة 1879 مذكرة حول "النظام البدائي أو الأولي للصوائت في الألسن الهندية ـ الأوروبية" وبعد سنة حصل على دكتورته كان مبحثًا "الاستعمال المطلق لحالة الإضافة في السنسكريتية" الذي

سينشر عام 1881، وكان تدريسه للقواعد المقارنة التي استفاد منها كثيرًا في كتابه الذي بعد موته من قبل طلبته النبهاء، واعني بـــه" محاضرات في الألسنية العامة، ومنذ عام 1907 صار أستاذًا فـــي اللسانيات العامة.

ويظهر أن شعور سوسور بمعارضة مناهج وأفكار معاصريه لم تتأخر إلى غاية بداية القرن العشرين، فمنذ صار عضوًا فـــي الجمعية اللسانية الفرنسية بباريس كتب مقالة مما جاء فيها «كنـــت أرتعد في كل خط أريد أن أقول فيه شيئًا لن يكـــون متفقًـــا مـــع بوب (Bopp) الذي صار معلمي الوحيد»[1].

ويقول كارول ساندر (Carol Sanders) محلل ودارس كتابه فـــي اللسانيات العامة : «يظهر أنه (سوسور) لو أحب أن يأخذ الجنســية الفرنسية لنال عضوية كوليج دوفرانس (Collège de France) فـــي بريال (Bréal)»[2].

ومنذ أن ظهرت مذكرته ظهر رأيه في المسألة اللغوية التـــي كانت الدراسات المقارنة مهيمنة عليها، حيث كان في هذه المسألة شيئين اثنين : «ضرورة اعتبار اللسان كنظام أولي من دراســـته كوحدات منفصلة، وضرورة إقامة عمل نظري»[3].

ونحن لانريد أن نخوض طويلا لعرض أفكار سوسور، فـــهو موسوعة فكرية لسانية قائمة بذاتها على الرغم من الانتقادات التي

---

1. C.L.G Carol Sanders, *Lire aujourd'hui*, p. 10.
2. المرجع السابق، ص. 7.
3. نفس المرجع، ص. 11.

وجهت ولا تزال توجه له، ولكن أفكاره من الناحيـــــة المنهجيــة ستبقى مع ذلك مؤثرة إلى حد كبير، ولا يكاد يسلم منـــها لســـاني معاصر واحد، ولذا سنركز حديثنا عما جاء عنده في هذه العجالة عن اللغة تماشيًا مع عملنا، على الرغم من أن سوســـور يتكلـم أحيانًا عن موضوع وأنت تقرأ فيه المنهج، وأحيانًا أخرى يتحدث عن نقطة منهجية فتقرأ فيها وكأنه يتحدث عـن المـادة، ولذلـك فقراءته يجب أن تكون حذرة خاصة في بعض النقاط التي أثارهـا ولم تكن نضجت بعد أو كان سبق إليها منذ بانيني مرورًا بأرسطو ثم اللغويين العرب «ناهيك عن أنه ذهب مذاهب شتى فيما خلـف لنا من حواشي وتعليقات حول طائفة من المسائل»[1].

بعد تأكيد سوسور على أن فرانز بوب لم يكن أول من أوجـد الدراسات المقارنة حتى وإن أدرك العلاقات التي يجمع بينها رحم مشترك، ينتقل إلى ذكر الأخطاء التي وقعـت فيـها الدراسـات المقارنة لاحتوائها أحيانًا على المفهوم البيولوجي «ولـــهذا فـإن النتيجة كانت تفلت من بين أيدي هؤلاء المقارنين، لكونهم كـانوا يعتبرون تطور لغتين مثلما كان يفعل عالم النبات بنمـو صنفـي نبات،... وهذا المنهج المقارن استثنائيًا يستجر مجموعـة مـن التصورات الخاطئة لا تتفق مع أي شيء إطلاقًـا علـى أرض الواقع، وهي فوق ذلك غريبة كل الغرابة عن الشروط الحقيقيـة لكل لسان »[2] ؛ منوهًا في الوقت نفسه بمدرسة النحويين الشـبان

---

1. مدخل إلى اللسانيات، رونالد إلوار، ص. 46.
2. محاضرات في الألسنية العامة، ص. 14.

الذين لم يعد ينظر على أيديهم إلى اللغة كجسم يتطور بذاته، ولكن كنتاج للفكر الجمعي للمجموعات الألسنية[1].

إن مذهب سوسور ينبسط كله على التخالفات التي ينبثق منها في النهاية تصور متحد بشكل من أشكال لتحالفات، سواء تعلق الأمر بالمنهج أم المادة، وتتهمه بعض المراجع بمرجعية عقائدية مسيحية، وأن هذه الثنائيات تعود إلى عقيدته أكثر مما تعود إلى عقليته.

تقسيم دي سوسور للغة

على أي حال، يقسم سوسور اللغة (le langage) إلى لسان (langue) من مجموعة لسانية، بينما الكلام هو عمل أو فعل الفرد الذي يستعمل هذا اللسان ليتكلم أو يستمع، يجب على اللساني أن يلفت انتباهه قبل أي شيء إلى اللسان (la langue)[2] أو أن اللسان هو نظام تزامني (سانكروني) من العلامات، ولمعرفته يجب أن ندع اللسانيات التاريخية جانبًا «بمجرد أن ننسى التغييرات التي تعتري كل لسان، نستطيع أن نلاحظ التعارضات والعلاقات التي تعمل على أن يكون اللسان نظامًا»[3]، أما اللغة (le langage) فهي التكلم الإنساني في كليته والذي، كما لمحنا أعلاه، تنقسم إلى لسان وكلام[4].

ولكي يقسم سوسور اللغة إلى لسان وكلام التجأ إلى تتميز آخرٍس، أي بين الدراسات الدياكرونية التي ترسم تطور اللسان

1.نفس المرجع، ص. 15–16.

2. C.L.G Carol Sanders, *Lire aujourd'hui*, p. 17.

3. المرجع السابق، ص. 18.

4. نفس المرجع، ص. 6.

على المحو التتابعي والدراسة السانكرونية التي تتخذ نظام اللسان هدفًا لها في لحظة معينة على المحور الآني :

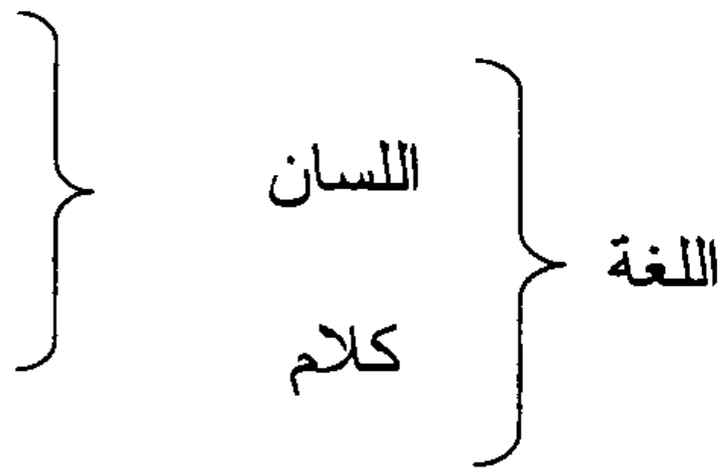

إن سوسور يعني بهذا التقسيم أن نميز في لغتنا نفسها بين المجموعات المتداعية الغائبة منها وهي مجموعة الوحدات المتوفرة في الذاكرة، وكل مجموعة منها تشكل المحور العمودي، أما المجموعات الحاضرة فإنها تؤلف المحور الأفقي.

ولتعرب هذه المفاهيم على حقيقتها بشكل أكثر لمسًا نحيل مباشرة على نصوص سوسورية، حتى وإن كانت تحاليل بعض اللسانيين المتأخرين لنظريات سوسور ليست أقل أهمية من نظريات سوسور نفسها حيث أضفت عليها بعض اللمسات المطلوبة التي زادتها وضوحًا، هذا في القراءات الغربية، أما في القراءات العربية فإنها متشعبة في مفاهيمها ومتباينة خاصة في مصطلحاتها[1].

اشكالية المصطلح

وهذه مسألة عويصة وخطيرة في المصطلحات اللسانية بشكل عام والتي ترجمت وأصبحت متداولة بين قراء العرب، بينما من

---

1. انظر مثلا : محاضرات في الألسنية العامة، ص. 121.

ترجموا كتاب فندريس (le langage) قابلوا عنوانه بـــ "اللغة" ولعـــل هذه المسألة أي الفرق بين (langue) و(langage) ستتضح إلى حد ما حين نشير إلى مفهوم اللغة عند اندري مارتيني، ولذلك أجد نفســـي أحيانا أستعمل المصطلح الأجنبي كما هو في وضوحه مع ما فيـــه من تقزز بالنسبة للطبيعة الصوتية في العربية علـــى أن أســـتعمله معربا أو مترجما وهو غامض أو مضلل وعلى هذا، فـــإن بعـــض المصطلحات التي ترد هنا في توضيح الفرق بين هذه التقســـيمات وخاصة بين اللغة واللسان، والتي نستقيها من مراجـــع عربيـــة أو أجنبية مترجمة إلى العربية فيها ما فيها من بعض التحفظات.

اللغة جزء جوهري بين اللسان

إن هذا اللساني يرى أن اللغة جزء جوهري من اللسان إلـــى غير ذلك من التعريفات الجزئية لها والمتباينـــة فـــي أغراضـــها يصعب إيجازها في كل حين، إذ يقول :«ولكن ما اللغـــة ؟ ففـــي نظرنا لا بد من التمييز بينها وبين اللسان وصحيح أن اللغة ليست سوى جزء جوهري محدد منه، وهي فـــي وقـــت واحـــد نتـــاج اجتماعي لملكة اللسان، وتواضعات ملحة ولازمة يتبناها الجســـم الاجتماعي لتسهيل ممارسة هذه الملكة لـــدى الأفـــراد، وإذا مـــا نظرنا إلى اللسان ككل فإننا نجد تعددا في الشكل واختلاطا فيـــه، وهو أي اللسان، يمتد إلى أصعدة مختلفة، فيزيائية وفيزيولوجيـــة ونفسية، وذلك في آن واحد، كما ينتمي إلى المجـــالين الفـــردي والاجتماعي وفوق ذلك، فإنه ليصعب تصنيفه في أية فئـــة مـــن الوقائع البشرية، وما هذا إلا لقصورنا وعجزنـــا عـــن معرفـــة اكتشاف وحدته.

وعلى العكس من ذلك، فإن اللغة كل في حد ذاتـــها، ومبـــدأ للتصنيف، وما أن نوليها المكان الأول بين وقائع اللســـان حتـــى ندخل ترتيبا طبيعيا في مجموعة تتمرد على أي تصنيف آخر.

وإزاء هذا المبدأ من التصنيف، فإننا نعـــارض بـــالقول : إن ممارسة اللسان لتعتمد على قدرة تكسبنا إياها الطبيعة، في حيـــن أن اللغة شيء اتفاقي مكتسب ولا بد أن تخضع للغريزة الطبيعيـة بدل أن تعلو عليها»[1].

مخطط سوسور التواصلي

وفي نظر سوسور أي اللغة هي التي تساهم في دراسة اللسان بل هي التي تصنع وحدته، وأن التخاطب باللغة يتم بهذا الشكل :

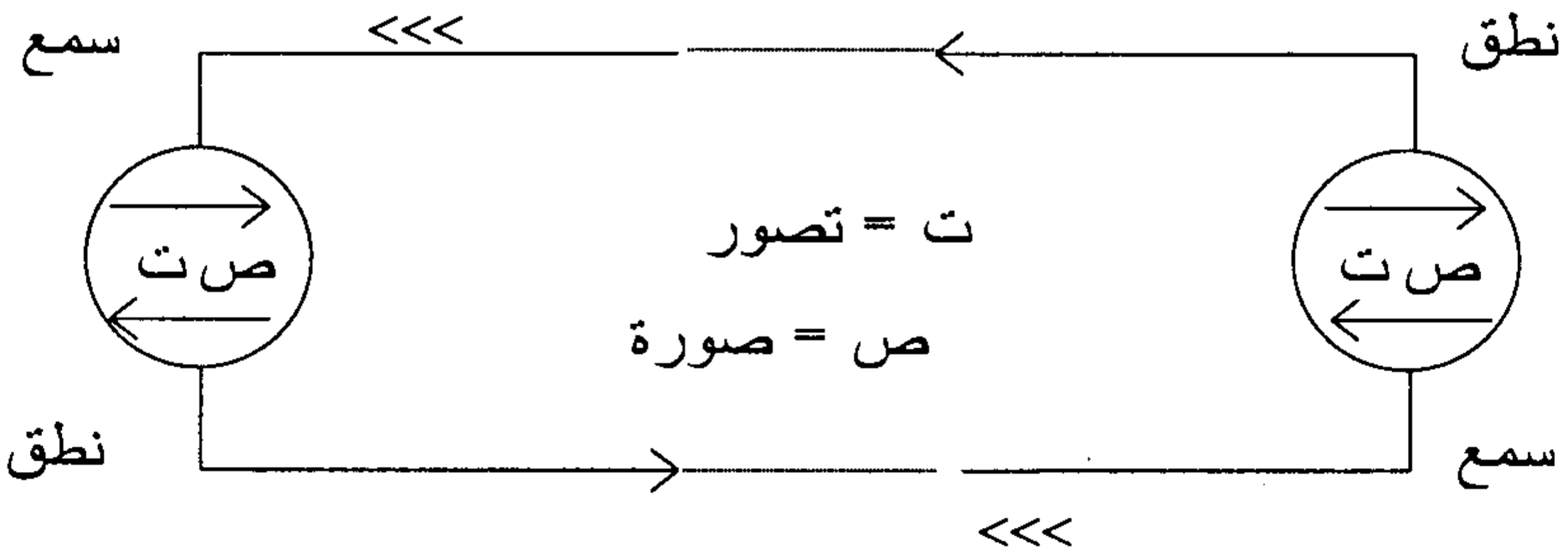

غير أن مخطط سوسور هذا يظل منقوصا، لأن التمييز بيـــن الكلام واللسانن يقتضي التميز أيضا بين الرســـالة أو المرســـلة اللغوية وبين الشفرة لتلقي هذه الرسالة عن باث ما تجمعنـــا بـــه رموز مشتركة، ثم هناك القناة التي عبر عنها سوسور زمنيا ولـم

1. المرجع السابق، ص.21.

يذكرها تصريحا، فالقناة التي تربط المرسل بالمرسل إليه هي القاعدة الفيزيائية التي تعمل على نقل إشارات من يراسل، ولذا فإن مخطط جاكبسون يظل أوفى من مخطط سوسور في هذا المضمار، ولقد سبق أن استوحيناه فيما مضى.

قراءة دانييل مانيس في التمييز بين اللغة والكلام

ومن الذين حللوا نص سوسور السابق للتمييز بين اللغة والكلام دانييل مانيس إذ يقول : «إن التمييز الذي أقامه سوسور بين اللغة والكلام أمر جوهري من الناحية المنهجية لأنه يهدف إلى تمييز موضوع علم اللغة ذلك لأن حقيقة الموضوع لا تنفعل عن المناهج التحليلية التي تطبق عليه،فهو يرفض أن يكون الكلام موضوعا للعلم لأنه متعدد الأوجه فردي ولا يمكن توقعه وبالتالي يستحيل تحديده، أما اللغة فهي ــ على العكس من ذلك ــ ذلك الرصيد الداخلي الذي يمتلكه كل فرد من الجماعة، وليس للفرد عليها أي سلطان ولا يستطيع خلقها أو تعديلها، لأن اللغة بمشكلها الاجتماعي لا توجد عند الفرد إلا جزئيا ولا تكتمل إلا عند الجماعة»[1].

إن هذه الثنائية موجودة عند هلمسليف كتعارض أعم في كل نظام إشاري بين السيرورة (Procés) والنظام اللذين يستدعي كل منهما وجود الآخر، وتوجد كذلك عند تشومسكي في النحو التوليدي بين القدرة والإنجاز.

---

1. الموقف الأدبي (العدد السابق)، ص. 218.

أما فيما يخص اعتبار اللغة ــ لا الكلام ــ موضوعًا للعلْم، فإن دانييل مانيس يعلق : «إن اللغة ليست بالشرح المشخص، ولا تقع بالتالي تحت الملاحظة العلمية، ونحن في حاجة إلى استخلاصها من الكلام، وهذا بدوره لا يوجد، لا بفضل وجودها الضمني الذي يحدد كل صيغه الممكنة»[1].

تعاريف دي سوسور للغة

ــ تشتمل دراسة اللسان جزئين : أولهما جوهري، وغرضه اللغة التي تتميز بكونها اجتماعية في ماهيتها ومستقلة عن الفرد، وهذه الدراسة هي نفسية وحسب (ص. 132).

ــ إن اللغة إنتاج للكلام وسيلة له (ص. 32)

ــ يفترض تعريفنا للغة إبعاد كل ما هو غريب عن كيانها ومنظوماتها، وبكلمة واحدة كل ما نشير إليه "الألسنية الخارجية" (ص. 35).

ــ إن لعادات أمة ما تأثيرًا في لغتها، فضلا عن أن هذه اللغة هي التي تصنع الأمة إلى حد كبير (ص. 35).

ــ إن النتاج الاجتماعي أي اللغة والمدخر في دماغ كل منا، لهو الغرض المحسوس لدراستنا هذه (ص. 39).

ــ فهذه الأخيرة (اللغة) منظومة قائمة على التقابل النفسي لهذه الانطباعات السمعية (ص. 50).

---

1. المرجع السابق، ص. 219.

ــ إذا ما ردت اللغة إلى أسها الأول، فإنها في نظر البعـــض مدونة : أي قائمة عبارات توافق قدرًا من الأشياء (ص. 87) حتى وإن لم يستند إلى هذا التعرف فإنه قد استند عليه وانطلق منه.

ــ إن العلامة اللسانية لا تربط شيئًا باسم بل تصورًا بصـورة سمعية.

وهذه الأخيرة ليست الصوت المادي، الذي هو شيء فيزيـــائي صرف بل هي الدفع النفسي (ص. 88). ألا يعتقد سوسور بوضوح من الإيحاء انه يتمثل اللغة من الخارج وليس من الداخل ؟ وقوله : «الدفع النفسي» لا يلغي هذا الإيحاء، لأن كل ما في اللغة برمتـــها شيء نفسي أمر بديهي عنده (الحقيقة أن كل شيء نفسي في اللغة) ثم : «إن العلامة الألسنية إذن هي كيان نفسي»... (ص. 88).

ــ ومهما أو غلنا في الزمن فإن اللغة تبدو دائمًا ميراثًا للحقبـة السابقة أيًّا كانت (ص. 93).

ــ وفي الواقع، ليس هناك من مجتمع إلا ويعرّف اللغة أنـــها نتاج إرث الأجيال السابقة (ص. 94).

هيمنة العوامل الخارجية على سوسور في تعريف اللغة

ومن غير المجدي هنا أن نستمر في الإحالة علـــى تعـرف سوسور للغة كجرد نـــهائي فـــهو عـــلاوة علـــى شـــكواه إزاء المصطلحات التي لم تسمح له بتحديد تقسيماته وتقابلاتـــــه للغـــة والعناصر التي تتصل بها، فإن الرجل كما يوهم الكثير من محللي أفكاره حول هذا الموضوع لا يقتصر على تعريف واحد للغـــة،

لأنه لم يعرفها مرة واحدة، إلا مرتبطة بظاهرة، لكل الظاهرتين : الخارجية والداخلية هما اللتان طغتا على تعريفاته، لكن العوامل الخارجية هي الأكثر طغيانا وبروزًا ليس فقط في تعريف اللغة، ولكن في أغلب ما تناول من دراسات متصلة بها اتصالا وثيقًا.

ولْنَبْق فقط بمقارنة تعاريفه المتعددة هنا لنبين أن هذا اللساني تعامل مع اللغة من الخارج أكثر مما تعامل معها من الداخل، علاوة ما أشير إحالة على بعض نصوصه.

ــ اللغة واقع اجتماعي (ص. 17) بينما هي عند التحويين الجدد، نتاج للفكر الجمعي للمجموعات اللسانية.

ــ الحقيقة أن كل شيء نفسي في اللغة (ص. 18).

ــ سبق أن أوردنا جملة : «إن اللغة إنما هي التي تصنع وحدة اللسان» (ص. 22).

ــ إنها (أي اللغة) كنز يدخره الأفراد الذين ينتمون إلى مجموعة واحدة عبر ممارسة الكلام، وهي منظومة نحوية موجودة بالقوة في كل دماغ، وعلى وجه التحديد في أدمغة مجموعة أفراد، إذ إنها لا توجد كاملة تامة عند الفرد وإنما لدى المجموعة (ص. 25).

ــ إن اللغة... غرض يمكن دراسته بشكل مستقل (ص. 26).

ــ إنها (أي اللغة منظومة من) العلامات (ص. 26).

ــ رأينا أن اللغة إنما هي مؤسسة اجتماعية غير أنها تتميز بسمات عدة عن المؤسسات الأخرى سياسة كانت أم قانونية (ص. 27).

دي سوسور يطرح إشكالية المصطلح

وكنا قد أشرنا إلى اضطربات المصطلح والمفاهيم لدى قـراء كتاب سوسور المعني وهذا ما شكا منه دانييل مانيس أيضا بل قـد اعترف سوسور نفسه باضطرابات هذه المفاهيم اللسانية لاختـلاف أو تفاوت الدلالات في الكلمات التي استعملها سوسور من لغة إلى أخرى : «يجب الملاحظة أننا عرفنا أشياء لا كلمات، هذا وليـس لثبوت التمييز من أن يخشى بعض المصطلحات الغامضة التي لا تتطابق بين لغة وأخرى، ومن هنا فـإن (Sprache) فـي اللغـة الألمانية تعني "اللسان" كما تعني "اللغة" و(rede) تطابق إلى حد ما الكلام، غير أنها تزيد على الكلام المعنى الخاص "للخطاب"، وفي اللاتينية أن كلمة (Sermo) تعني هي الأخرى "لسانا" و"كلاما" فـي حين أن كلمة (lingua) تعني اللغة فحسب، وهلم جرا، إنه ليـس هناك من كلمة تتطابق تماما ولا كليا مع أحد المفاهيم التي ألمحنا إليها سابقا، وهكذا فإن كل تعريف لكلمة ما باطل، كما أن المنهج الذي ينطلق من الكلمات لتحديد الأشياء لهو خاطئ»[1].

ويقول في موطن آخر : «وتحاشيا لتعريفات عقيمة للكلمـات، فقد ميزنا أولا عاملين الظاهرة العامة التي يمثلها اللسان، وهـي اللغة والكلام»[2] ارتياح دي سوسور لأفكار وايتني اللغوية ويظـهر جليا أن سوسور قد ارتاح إلى حد التأثر بأفكار وايتني اللغويـة، وأهمها أن اللغة أشبه ما تكون بمؤسسة اجتماعية، وأن وايتنـي من كان قد ألح على طابع العلامات الاعتباطية، حتى وإن كان لم

---

1. محاضرات في الألسنية العامة، ص. 25-26.
2. المرجع السابق، ص. 99.

يصل إلى درجة التمييز فيما هو اعتباطي جذريًا بين اللغة وباقي المؤسسات الأخرى «وبحق، لقد ألح وايتني على طابع العلامات الاعتباطي ليشعرنا أن اللغة مؤسسة محض، ومن هنا فقد وضع الألسنية على محورها الأساسي، غير أنه لم يكمل الشوط حتى النهاية، ولم يدرك أن صفة الاعتباطية هذه تفصل جذريا اللغة عن كل المؤسسات الأخرى»[1].

الوضع المتحرك للمنظومة اللغوية

ــ تشكل اللغة منظومة،... فهذه المنظومة آلية معقدة ولا يمكن إدراكها بغير التفكير، وأولئك الذي يستخدمونها يوميًا إنما يهملون ذلك جهلا مريعًا (ص. 95).

ــ إن اللغة في نظرنا إنما هي اللسان مفتقدًا الكلام، وهي مجموعة العادات اللغوية التي تسمح للفرد أن يفْهَم ويُفْهم (ص. 99).

ــ إن تعريف اللغة الكامل يضعنا أمام شيئين لا ينفصلان كما يظهر ذلك الرسم التالي :

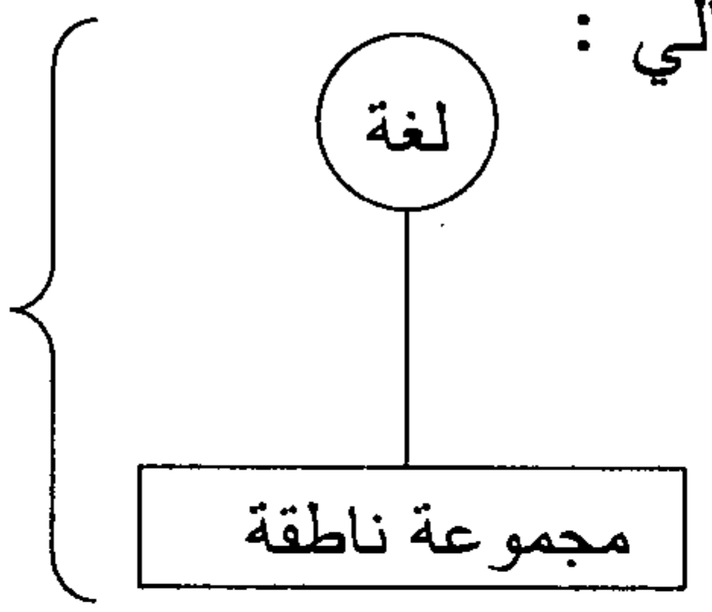

لكن اللغة لن تبقى في هذا الوضع الآني الحر بل ستمارس عليها هذه المجموعة الناطقة لها، بفعل الزمن، تأثيرات عليها، وبذلك يصير الرسم السابق على النحو التالي :

---

1. نفس المرجع، ص. 98.

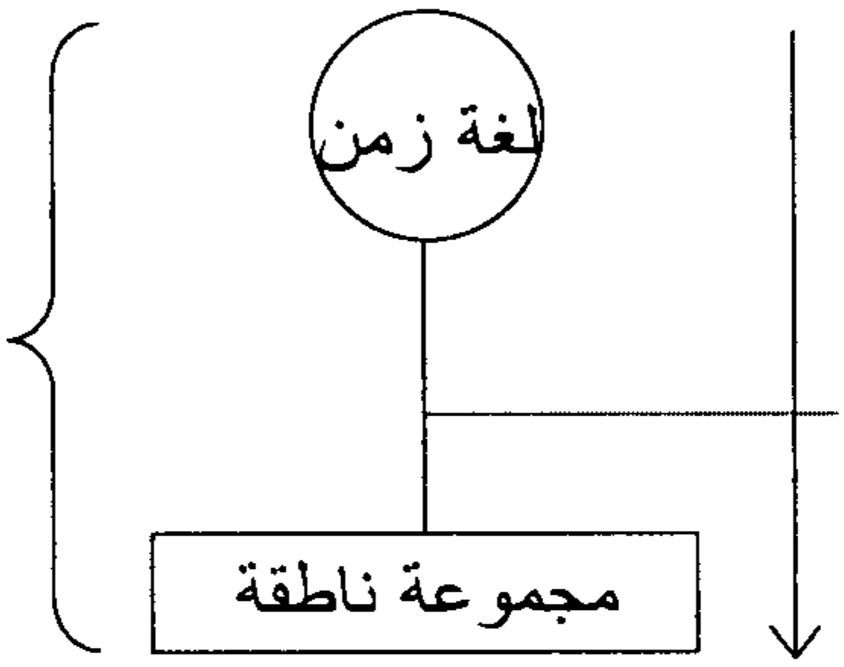

ــ وقصارى القول : إن اللغة تبدو كمجموعة من العلامـــات المحددة مسبقا،... إنها كتلة مبهمة (ص. 126).

ــ ويمكن تشبيه اللغة بورقة، يكـــون الفكـــر وجهـــها الأول والصوت وجهها الآخر، ولا نستطيع فصل أحد الوجهين من دون الآخر في آن والأمر نفسه بالقياس إلى اللغة إذ لا يمكـــن عـــزل الصوت عن الفكر (ص. 138).

ــ يدلنا ما تقدم أن لا وجود في اللغة إلا للاختلافات (ص. 145).

ــ وفي اللغة كما في أية منظومة أعراضيـــة أن مـــا يمـــيز علامة ما إنما هو كل ما يشكلها (ص. 147).

ــ وبعبارة أخرى أن اللغة شكل وليست مادة (147).

ــ إن اللغة ثوب مكتنز عامر بخرق مصنوعة من نسيجه هو، إن أربعة أخماس الفرنسية إنما هي هندو أوروبية، وذلك إذا مـــا فكرنا بالمادة التي تتركب منها هذه اللغة، بينما نجد أن الكلمـــات المنتقلة في كليتها من اللغة الأم الفرنسية الحديثة بلا تغير قياســـي نجد أنها تملأ صفحة واحدة (ص. 208). ــ إن اللغـــة بالنســـبة

لشعور البدائيين عادة وعرف، وهي تشبه في ذلك الزي أو التسلح، وكلمة لغة (idigme) تعني تحديدًا اللغة كانعكاس للسمات الخاصة لطائفة ما، وهي هنا تتبدى فكرة سليمة، غير أنها سرعان ما تمسي خطأ وذلك إذا ما رأينا في اللغة صفة للجنس لا للأمة، كما هو لون الجلد أو شكل الرأس (ص. 231).

خلاصة تحليلية في آراء دي سوسور اللسانية

إننا لم نورد مثل هذه الجمل والفقرات المحالة على سوسور تعسفًا ولا حشوًا لإثقال هذا الموضوع سلبًا ولا إيجابًا، ولكن لنحاول أن ننوع تعريفاته للغة من خلال تنوع المواضيع العديدة التي تناولها سوسور بالدرس والتحليل، وأن إدراكنا لهذه النقطة لا يكون ذا مقاربة مجدية إلا من خلال الإلمام بمواقفه المنهجية إزاء أفكاره العلمية، وليس فقط من خلال التقسيم الشائع، لسان/ لغة/كلام.

إن اللغة عند سوسور مؤسسة اجتماعية ذات صفة اعتباطية، وهي واقع اجتماعي نفسي من إنتاج المجتمع، وهي التي تصنع وحدة اللسان لدى الأمة، وبالتالي فهي مادة مستوعبة بشكل موزع لدى الأفراد الذين يتراسلون بها عبر الزمان والمكان، لكن صفتها الأخيرة لم تمنعها من أن تكون مستقلة في ماهيتها عن الأفراد على الرغم من أنها إنتاج للكلام وآلة له.

واللغة فضلا عن كونها عادة وعرفًا في شعور البدائيين على الأقل، فهي كذلك ميراث للحقب السابقة وأنه لا الفرد ولا حتى الجماعة تستطيع أن تعدّ لها أو تخلق لغة ثانية خلقًا للغة سلفها.

وبما أن اللغة منظومة معقدة من العلامات وأنها كتلة مبهمة فإنها لا تدرك إلا بإعمال التفكي.

وكون اللغة مستقلة في ماهيتها عن الأفراد لا يعني أنها حرة في الزمن، فبينما تكون اللغة في وضع تزامني حر مرتبط بالمجموعة التي تتكلمها، فإن الزمن في وضع تعاقبي يحل محل اللغة الآنية بفعل عوامل خارجية.

إن المتتبع لأفكار سوسور ليدرك بأنه قد مارس دراسات زمنية أو تاريخية أكثر مما قام بدراسات تزامنية أي أن الطابع الدياكروني والتي تمثل في دراسات تقوم على المقارنة وحياة للألفاظ وتنقل الكلمات والتغييرات الصوتية،... وعلى عوامل خارجية كثيرة تعد الطابع العام لأعماله في هذا الكتاب على الرغم من قوله : «داخلي هو كل ما يغير المنظومة مهما تكن درجة هذا التغيير» (ص. 37) أو كقوله الآخر : «إن هدف الألسنية المنفرد والحقيقي عندنا هو اللغة منظورا إليها في ذاتها ولذاتها» (ص. 280).

القرآن الكريم يعرف اللسان

وبالنسبة لحل هذه الإشكالية وتفهمها في عمقها فيما يخص التقسيمات اللسانية التي أوردها سوسور، فإننا نحيل على آية قرآنية كريمة واحدة : «وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم» حيث يعبر القرآن الكريم تعبيرا واضحا عن مفهوم اللسان وما هو تابع له على النحو التالي :

ـ اللسان هنا لغة العرب أو خطابها العام دون تخصيص.

ـ اللغة ما كان يخص منطقة عربية واسعة أو العرب كلـــهم لكن بتفاوت لهجي محلي، ولذلك عبر القرآن باللسان، ولم يعـــبر باللغة، لأن العرب كانوا يطلقون كذلك مصطلح اللغة على اللهجة.

ـ أما الكلام فلا خلاف فيه مصطلحًا ولا أداء، وما أضـــاف فيه سوسور ومن تقدمه من بعض اللسانيين انه إنتـــاج فـــردي لتشكيل ثنائية تقابل : اللغة إنتاج جماعي تماشيًا مع مذهب سوسور القائم على الثنائيات :

ـ دال/مدلول

ـ لسانيات زمنية/لسانيات تزامنية

ـ علاقات تركيبية/علاقات ترابطية

ـ لغة خارجية/لغة داخلية

ـ ماهو لساني/ماهو غير لساني، إلخ.

بين سوسور وابن خلدون

وربما كان التقسيم الخلدوني المستنتج من كلامه عـــن اللغـــة وعلومها ووظيفتها وانتشارها،...لا يشذ عن التقسيم السوســوري، فعلاوة على الجدول السابق الذي تصورناه لـــدى ابـــن خلـــدون والدال على العمومي والفردي والجماعي والخصوصـــــي وفـــق درجات الخطاب ومستواه، فإننا نقيم الجدول التالي والذي أخرنـــاه قصدًا بعد الوقوف، ولو سطحيًا، على مفهوم اللغة والكلام واللسان وما يتصل بها من عوامل خارجية وداخلية عند سوســـور الـــذي يتفق مع ابن خلدون في إخضاع اللغة إلى المجتمع، لكن كظـــاهرة

فردية ومستقلة عن المؤسسات الاجتماعية الأخرى، وهو ما قال به ابن خلدون إن التقسيم التصوري للغة كأداة خطاب بشري فطري عند ابن خلدون تتم على الفرضيات التالية :

1. ما قبل أو خلال حصول اكتساب الملكة بالطبع المتوارث :

اللسان	لغة أولا كلام ثانيا	ملكة بالطبع	مجموعة ناطقة أصلية أو داخلية

2. ما بعد حصول الملكة بالطبع وانتقالها من الداخلي إلى الخارجي أو مما هو مألوف إلى غير ما هو مألوف :

اللسان	كلام أولا لغة ثانيا	ملكة بالتطبيع	مجموعة ناطقة متداخلة أو داخلية- خارجية

3. ما بعد الملكة اللسانية بالتطبيع وانتقالها من الخارجي إلى الداخلي (خلال عملية الامتزاج اللغوي) أو ما هو غير مألوف إلى ما هو مألوف (بحيث يصير الخطأ أو اللحن أحيانًا هو الصواب) :

اللسان	عامية فصحى	لغة ازدواجية	مستويات لهجة رفيعة مستويات لهجي متدنية مستويات لهجية بعيدة مستويات لهجية غريبة مستويات، إلخ.

لغتنا شبكة مفتوحة من العناصر المتعددة

كنا أشرنا قبل هذا الموضع إلى أن تعريف اللغة لدى اغلب اللسانيين المعاصرين لم يعد مسوّغا بمعزل عن اللغة في ذاتها ولذاتها على الرغم من أن هناك فرقًا بيّنًا بين حد العلم وحد الموضوع، ولكنهم لا يفلحون في هذا العزل بشكل مطلق، لأن الشبكة اللغوية على الرغم من كونها منظومة مستقلة ومتميزة عن شبكات اقتصادية وسياسية ونحوهما فإنها ليست مستقلة آليًا إلى درجة انهالا تتموضع خارج إرادة الفرد الذي يكتسبها ويستعملها بمعنى أن اللغة لا تعرف تعريفها العلمي الصحيح إلا في إطار شبكة مفتوحة لكل الاحتمالات.

نحن لا نسيطر على لغة الحاضر التي نزعم أننا نعرفها ونتقنها إلا من خلال الماضي فقط، ولا نستطيع أن ندعي إلا غرورًا بأننا نعرف لغة المستقبل من خلال لغة الحاضر ومن هنا تظل اللغة أو البحث عنها وعن هويتها وما هيتها مرتبطًا بماضيها أي بالأسلاف الذين أودعوها فينا بوسائل وطرق شتى غالباً ما نعزُوها إلى عامل وراثي وتعلمي، ثم لا نلبث في أرقى الحالات إن نتساءل عن وصف وتحليل هذه الوسائل والطرق.

ولذلك نجح اللسانيون المعاصرون إلى أن يعرّف كل واحد منهم اللغة وفق وصف منهجي أكثر مما هو صياغة تنظيرية للغة في عالم المثل والافتراضات، لأن النظريات السابقة لم تقنع هؤلاء ولذا فإن الحل الوحيد هو أن نتعامل مع اللغة كشبكة مفتوحة على الحاضر من خلال الماضي.

إذا أردنا أن نفهم اللغة عند سوسور مثلا بشكل أوضح فما علينا إلا أن نقرأ وندرس بعمق العناصر التي حللها داخل اللغة وخارجها، علينا ألا نقتصر على الثنائيات وحدها على حساب باقي، العناصر الأخرى التي بها يتجلى شيئًا فشيئًا مفهومه للغة وما يتعارض معها.

ورأينا تلميحًا، كيف أن تشومسكي حاول أن يعطينا مفهومًا عن تعريف ملموس للغة لكن من خلال اللغة نفسها أي بالنسبة إليه من خلال بنياتها السانتكسية وأفكاره ستكون أكثر اتضاحًا إزاء اللغة لو كنا نتحدث عن البنية السانتكسية للجملة.

أندري مارتيني يعرف اللغة

والمقولة أعلاه تنطبق كذلك على أندري مارتيني الذي يعترف قائلا : «إنني ألاحظ بكل بساطة أن هناك قضايا تمثل التمفصل المضاعف، وبما أن هذه القضايا تستخدم في عملية الاتصال وبما أنها ذات طابع صوتي، فقد قررت أن أسميها "لغات" دون أية مناقشة، وذلك انسجامًا مع الاستعمال الدارج لهذا التعبير، إنني أستخرج بالفعل هذا التعبير "لغة" وأعيد تعريفه انسجامًا مع هذه الملاحظة التي أثبتت وجود أدوات اتصال مضاعفة التمفصل وذات طابع صوتي وانطلاقًا من هاذا التعريف القائم على أساس تجريبي أتوصل إلى كل النتائج في الحدود التي تفرضها طبيعة للإنسان والمجتمعات البشرية»[1]، مما جعل جورج

1. علم اللغة في ق20، ص. 171.

مونان يعلق : «وينطلى هذا القول، في الواقع، على كامل سلوكية مارتيني العلمية»[1].

اللغة تمفصل مزدوج

إن أندري مارتيني يختلف عن سوسور في أنه يحاول أن يشكل من نظريته لغة أي تعريفًا للغة من خلال التمفصل المزدوج، بحيث يشكل مفهوم الانتقاء التبادلي عند جوهر نظريته المعروفة بالتمفصل المزدوج (double articulation)، لأن هذا المفهوم يعتبر السمة التي تميز اللغة الإنسانية عن جميع أنواع الاتصالات الأخرى[2].

ولبيان هذه الإشكالية، نحيل على مارتيني نفسه من خلال كتابه "اللسانية السانكرونية (linguistique synchronique) الذي يعد من الكتب القيمة إلى جانب كتابه : عناصر اللسانيات العامة، لكن نظرية التمفصل المزدوج تتردد في غير هذين الكتابين، لكن الإشكال يبقى مطروحًا دائمًا في المصطلحات.

إن مارتيني يصرح بأن مفهوم اللغة المتمفصلة يوحي مع ذلك إلى العديد شيئًا آخر غير الجلاء لتتابعات صوتية، وبعد أن يسرد ما يميز لغة الإنسانية عن لغة الحيوان بفضل التمفصل المزدوج الذي يميز الأولى عن الثانية يؤكد على أن اللغة الإنسانية ليست فقط متمفصلة بل مزدوجة التمفصل فالعبارات تتمفصل بالكلمات، وهذه الأخيرة تتمفصل بالأصوات[3].

---

1. نفس المرجع، ص. 171.
2. راجع الموقف الأدبي، العدد السابق : ص. 224.
3. André Martinet, *La linguistique synchronique*, Presses Universitaires de France, p. 7-8,

وإنه ليرى أن اللسانيين خلال وقت طويل لم يولوا أية أهميـــة لهذا النوع من اللغة الإنسانية «كانوا يبحثون عن إعطاء الأولويـة إذن لإثبات أن عدة لغات مشتقة من لغة واحدة أكثر قِدمًا وبيـــان نماذج تحالفاتها،... إن لسانيي هذه الفترة لم يكن يعنيهم العلاقـــات التي يمكن أن تقام بين الوحدات المتعاقبة للعبارات وكانوا يـــرون اللغة بأنها نظام من العلامات، لكن الجميع كان متفقًا ليرى في لغة نظامًا من العلامات، لم يكن ثابتًا أن كل نظام من العلامات كـــان لغة : الأضواء الحمراء، الصفراء، الخضراء التي تنظم المـــرور في المُدن، إن اللافتات التي تقوم بنفـــس الـــدور فـــي المنـــاطق الحضرية والريفية هي بكل وضوح أنظمة من العلامة، هل يجـب علينا انطلاقًا من هذا أن نوافق على إعطائها الحـــق مـــن بيـــن اللغات ؟ إن القائلين بالإلحاقيـــة (les annexionnistes) والذيـــن لا يجدون حقول علومهم أكثر فسحة لا يترددون في القـــول : كـــل الأنظمة من العلامات هي لغات، بما في ذلـــك الألعـــاب كلعبـــة الضامة والشطرنج، لكن هذا يدعنا بدون أية وسيلة لعصر ما يهم اللساني بوجه أخص لمعرفة اللغة (langage) كما هي تبرز تحـت شكل لغات متنوعة (langues diveres) والروســـية والصينيـــة، إن هذه اللغات لها سمات مشتركة لا تقاسمها فيها أضواء المـــرور، ولا لعبة الشطرنج...»[1].

ولنفهم جيدًا كيف لأن لغة يمكن لـــها أن تعـــرّف كتمفصـــل مزدوج، يكفي أن نقتنع بأن الوظيفة الأساسية للغة الإنسانية هـــي ما يمكن كل إنسان لتبليغ من يشبهونه تجربته الشخصية.

---

1. المرجع السابق، ص. 8–9.

إن أصوات الحيوانات مثلا لا شك وأنها تبلّغ شيئًا ما، هـــذا التبليغ ليس ذا طابع لســـاني، وأن مـــا يمـــيز التبليـــغ اللســـاني بالتعارض مع الإنتاجات الصوتية غير اللسانية هو بالضبط هـــذا التحليل إلى وحدات خطية متعاقبة الواحدة تلو الأخـــرى، حيـــث يطلق على هذه الوحدات "المونيمات".

المونيم أو الوحدة الدالة بدل "الكلمة"

إن المونيم عند أندري مارتيني أصغر وحدة دالة في الخطـــاب وهو سمى هذه الوحدة الدالة بـــ "المونيم" خلافًا للمدرسة التوزيعيـــة التي تسميها "المورفيم" لأن الكلمة بالمفهوم الشائع أو التقليدي قد تـدل على أكثر من مونيم أو مورفيم أي أصغر وحدة دالة فـــالفعل "درج" الثلاثي المجرد هو يمثل كلمة ووحدة دالة، لكن حين نصوغه علـــى وزن استفعل كما جاء في القرآن الكريم : «سنستدرجهم من حيث لا يعلمون» فإن «سنستدرجهم» صار يحتوي على ست وحدات دالة إذا لم نأخذ بعين الاعتبار التاء التي يجب البحث عن وحدتها الدالة فـــي إطار موروفولوجي ولبيان ذلك :

ـــ ســـ : مقابل سوف الدالة على التعيين البعيد.

ـــ نـــ : مقابل "نا" الدالة على الفاعل مثله.

ـــ سْتَـــ : وحدة دالة على وظيفة موروفولوجيـــة تعارضـــها الفعل المجرد.

ـــ درج : وحدة دالة أصلية.

ـــ ـــهـــ : وحدة دالة بالتعارض مثلا مع ـــكـــ.

ـــ بم : وحدة دالة تعارضًا مع نون النسوة مثلا.

وفي لغة كالفرنسية، فإن جملة (Je vais au marché) مكونة من خمسة مونيمات أو خمس وحدات دالـــة لأن (Au) مركبـــة مـــن وحدتيـــن دالتيـــن همـــا حـــرف الجـــر وأداة التعريـــــف (le) والفعل : (partirons) مكون من ثلاثـــة مونيمـــات والفعـــل فـــي العربية : "ذهبوا" مكون من وحدتين دالتين : ذهب + وا.

ولذلك يصرح أندري مارتيني : «يجب ألا نعتقد إذن بأن لفظة "مونيم" ليست إلا شكلا متحذلقا لتعيين ما نسميه "كلمة" في حياتنـــا اليومية»[1].

التحليل اللغوي مختلف حسب اللغات

وبالنسبة إليه فإن الكيفية التي تحلل بها مختلف من لغـــــة إلـــى أخرى ويفهم من بعض جمله أنه لا يستبعد أن تكون اللغة مجموعـــة من العادات «هذه المجموعة من العادات التي ندعوها لغـــة(langue) ستقودنا إلى تحليل التجربة لعدة عناصر حيث توجد اللغـــة لتمنحنـــا معادلات (des équivalents) فاللغة(la langue) يمكن مثلا أن تملـــــك مونيما خاصا (un monème particulier) مثـــل (migraine) (صـــداع نصف الرأس) بدل أربع وحدات متتالية : (mal à la tête) (له وجـــع في الرأس) فبالنسبة لـــ (J'ai mal à la tête) (عنـــــدي وجـــع فـــي الرأس) في اللغة الإسبانية يقال بصفة عادي : (la tête me fait mal) (الرأس يؤلمني أو يوجعني) مع تنظيم مختلـــــف تمامـــا لعنـــاصر متنوعة،...»[2].

---

1. المرجع السابق، ص. 11.
2. نفس المرجع، ص. 11.

التمفصل المزدوج الثاني

أما التمفصل المزدوج الثاني الخاص بالفونيمات فإنه ذو طابع اقتصادي عنده، لكن المونيمات تقدر في كل لغة بالآلاف، وأما الفونيمات فهي محدودة جدًا في كل لغة (24 في الفرنسية و28 في العربية) بمعنى أن مارتيني يعطى تمييزا واضحًا بين الصوت (le son) والفونيم (phonème) فكلمة (tête) تحتوي على ثلاثة فونيمات (T/E/T) وعلى هذا فهو يغلب على اللسانيين الذين تقدّموه حيث كانوا مشتغلين خاصة بوحدة العلامة بينما اهملوا التمفصل الثاني، مما جعلهم يتركون عدة سمات أساسية غامضة في التواصل الإنساني، لأننا حين نفكر في الاحتياجات الهائلة والمتنوعة للتواصلات الإنسانية فإنه يتراءى لنا أن لغة الإنسان (langage de l'homme) لا يمكن أن تُرى دون التمفصل المزدوج[1].

تعيين مارتيني اللغة كـ "كفاءة" (Faculté)

ويستمر هذا اللساني في توضيح معنى (langage) ليذكر ما ذا نفهم من "اللغة le langage" هو يعترف بالصعوبات التي يصطدم اللسانيون حين يريدون أن يعطوا قانونًا علميًا للكلمات أو المصطلحات التقليدية " أما في حالة لفظ (langage) (لغة) فإنه لا يبدو من الصعب جدًا أن اللسانيات قد عرّفت لنا تقليديا كعلم اللغة، ويبقى أن نعرف بطبيعة الحال أن نضع تزامنًا أو تصادقًا

---

1. راجع المرجع اعلاه، ص. 13.

للاستعمال العام والاستعمال العلمـــي للكلمـــة، والـــذي يرضـــي اللسانيين، ففي الكلام العادي، فإن اللغة (le langage) " تعني خاصة الكفاءة (la faculté) التي بحوزة الناس للتفاهم بواســطة الإشــارات الصوتية، إننا نتكلم حقا عن لغة الورود وعن لغة البهائم لكن هــذه الاستعمالات هنا تبقى مجرد صور، لأنه في كل الحالات يجـب أن نعني دائما نوعية "الورود" و"البهائم" إن اللغة (langage) لا أكـــثر، تعني دائما ملكة إنسانية(une faculté humain)، إن مختلف النمـــاذج لهذه اللغة (le langage) يقال لها "لغات langues" لا توجد أبدا "لغـــة ورود (langue des fleurs) أو "لغة بهائم"، إن هذه اللغة(le langage) الإنسانية التي تختلف تحت شكل لغات مختلفـــة (langues diverses) هي إذن الموضوع القاصر على أبحاث هي بالضبط لسانية"[1].

العلامات اللسانية وغير اللسانية

وبعد أن يميز بين (langage) و(langue) يعود ليطرح تساؤلا : هل يكون من المفيد لنا في كل مرة القول بتســـمية (langue) أي نظام من العلامات (signes) الاعتباطية (arbitraires) ؟ ثم يحلل هذا التساؤل بقوله : «ليس من المرتاب فيه أن الأضـــواء الملونـــة المختلفة التي تنظم المرور تكون نظاما من الإرشادات الاعتباطيـــة بالمعنى السوسوري للكلمة والحالة، فإن فحصا من هذا النوع هـو في عداد برنامج من الأبحاث السيميولوجية، ولكن لا علاقة لـــها باللسانيات، إن التعريف اللغوي الذي يقصي إشارة الطريق، حتى تحت اشكالها الأكثر اتفاقا بدقة، لن يكون فقـــط عقبـــة لإبعـــاد

1. المرجع السابق، ص. 18.

الاستعمال العام بكثرة، لكن خاصة إذا أدرجنا في ميـــدان علـــوم اللغة، مواضيع للدراسة التي تخرج عن كفـــاءة اللســـاني علـــى علاقة، يظهر لنا إذن في كل الحالات أن الإحالة على الإشـــارات الاعتباطية لن تكون كافية لتعريف اللغة (le langage) ومـــن ثـــم يجب علينا أن نبحث عن معيار أكثر نوعية، إن التكلم (le parler) العادي يمكن له هنا أن يسعفنا بعض الإسعاف، إننا غالبًا ما نسـمع قولا بأن اللغة الإنسانية (le langage hummain) متمفصلة (articulé) بالفعل وإن تفحصًا أكثر سرعة للحقيقة اللسانية كما نعرفها تبرهن بأن اللغة (le langage) الإنسانية يمكن أن تكون موصوفة كتمفصل مزدوج إلى وحدات دالة مونيمات (monèmes) وإلـــى وحـــدات مميّزة أو تمايزية (distinctives) الفونيمات (phonèmes)»[1].

قراءة تحليلية في ضوء ما سبق من نظريات لسانية

وهكذا فإن أندري مارتيني كغيره من اللسانيين المعـــاصرين الذين تعرضوا لتعريف اللغة، فإنهم غالبًا مـــا يعرّفونـــها وفـــق نظريات يبتكرونها على أنقاض الدراسات اللغوية التراثية، والتي لا تخلو من أصالة في العرض والمنهج كما رأينا خاصـــة لـــدى فرديناد دي سوسور وسابير وأندري مارتيني وآخرين.

ورأينا كيف أن اللسانيين المعاصرين أصبحوا يعـــانون مـــن تحديد المصطلحات، وسبق أن شكا ابن خلدون من هذا الـــتراكم ليس فقط في حقل علم اللغة بل في كل المعارف والصنائع، وهذه

---

1. المرجع السابق، ص. 21.

الشكوى وجدناها عند سوسور ثم عند مارتيني كما نجدها عنـــد هلمسليف الذي كوّن معجمًا خاصًا للعمل في حقل العلوم اللغوية.

لكن الذي لا يجب أن يغيب عن أذهاننا أن اللغة الإنســانية لا تحتاج بالقوة إلى علوم من ذاتها أو مستقلة عنها في حين أن هــذه العلوم لن تقوم إلا بها ولن تكون مستقلة عنـــها، ولذلــك انتقــد سوسور حين زعم بأن اللسانيات تدخل في عـــداد الســيميولوجيا حيث لم يميز في هذه الحالة بين ما هو لساني وغير لساني، بـــل نفهم من هذا أنه يعطي امتيازًا للإشارات غير اللسانية على حساب العلامات اللسانية.

وعليه فإن الإنسان هو الذي يبحث عن ذاته من خلال لغتــه، لكنه غالبًا ما يخفق في كل مرة وهو يحاول أن يبحث فيها عــن لغته من خلال بنيته الثقافية التي لم تتكون عنده إلا من هذه اللغــة نفسها.

إن النظريات اللغوية التي وقفنا عليها حتى الآن لم توف اللغة حقها فالنظريات القديمة غالبًا ما تنبذ منذ أول نظرة وأما الحديثــة فإنها لا تظل تدور إلا في منهج خاص بصاحبه أكثر مما تتنـــاول اللغة في الصميم، وهكذا تبقى اللغة ذلك السر العجيب القاهر لكل باحث سطحي أو متضلع.

وأيا كانت هذه النظرية أو تلك، ومهما كانت الأسرار التـــي تكنف لغتنا والتي تعد فوق طاقة الإنسان الفكرية والعقليـــة، فــإن اللغة تظل تحتل موقعًا أساسيًا في ثقافة الإنسان وعاداته وتقــاليده،

لأن الإنسان مبرمج قبل كل شيء ليتكلم، ولا يهمه مبدئيا ماذا سيتكلم، مبرمج لاكتساب لغة أو لغات (langues) مهما كان نوعها ومنزلته منها، لأن اللغة (le langage) مهيأة لتلبية الحاجات الأساسية للنوع البشري، وهذه الغريزة نحو اللغة تولد في الإنسان خلاقا للحرف والمهن والتصرفات والرغبات الأخرى.

إننا نتعلم اللغة (le langage) كما أشار مارتيني تحت شكل من اللسان (la langue) الخاص بمجموعة لسانية حتى يظهر في فعل من الكلام، ويمثل الفاعل المتكلم (le sujet parlant) المحور المركزي للغة (le langage) وأن اللغة لا يمكن لها أن تدرس خارج مرجعها لدى المتكلم.

«إن هدف اللسانيات المعاصرة اليوم إذن هو سبر الآليات للغة (langage) عبر اللغات أو الألسن المحكية من قبل الناس، والحالة هذه، فإنها تملك خاصية تميزها عن العلوم الأخرى، لا يمكن فهم موضوعها أو وصفه أو تحليله إلا من خلال الاستعمال للغة (langage) ذاتها : توجد علاقة يقال لها : ما وراء لساني (Métalinguistique) بين اللغة (le langage) موضوعا للتحليل، وبين اللغة (le langage) أداة لهذا لتحليل»[1].

عموما، فإن اللغة والكلام، بالنسبة لسوسور يعدان في عداد اللغة (le langage)، لكن ينبغي ألا نلبس الأمور هنا، فاللسان (la langue) ليس إلا جزءا معينا من اللغة (langage) ولذلك فإن

1. Marina Yaguello, *Pour comprendre la linguistique*, Paris, p. 12-13.

اللسانيين اليوم يعتبرون أن «اللغة (langage) تكون إنتاجا تاريخيا معقدا من النشاط الإنساني»[1].

ومع ذلك بالنسبة لسوسور، فإن تعريفاته ستظل غير مقنعة حينا ولا واضحة حينا آخر لدى التطوريين على الأقل، لكنها تبقى مرضية عند الآنيين أو البنيويين، لأنها تحاليل وصفية لما هو كائن فعلا، وتاريخية لما كان وانقضى، واستنادا إلى الظاهرة نفسها حين يكون تحليله آنيا، وإلى الظاهرة مع غيره حين يكون سرده تاريخيا.

غير أن التطوريين الذين لا يحبذون منهجية الوصفي على حساب اهمال ولو للحظة ما من السيرورة اللغوية، لا يقتنعون بوصف الظاهرة سطحيا بحيث تقسم إلى ما هو زمني وتزامني لأنه ليس سهلا أن نقيم حدا فاصلا صارما لحظيا بين الخطين اللذين يكفيهما تضامنيا وتآلفا أنهما متعامدان أي متلاقيان على الأقل في نقطة هي الصفر، لكن الصفر هنا ليس عنصرا وهميا أو على الأقل إيجابي.

إن لغتنا على ما يحيط بها من أوهام ميتافيزيقية ونظريات بعضها خرافي وآخرها جزافي أكثر مما هو حقيقة علمية ملموسة أو محتملة ليست بالمعجزة العلمية التي تبهر الإنسان في معرفة ما نطق به من أول صيحة إلى آخر نفس، لكنها ستظل معجزة فكرية ما دامت النظريات اللغوية تتباين أكثر مما تتقارب، وتتوازى أزيد مما تتقاطع حسب ذات العقلية الإنسانية وتصوره.

---

1. Frédéric françois, *Linguistique*, p. 39.

وأعتقد أن التعامل مع هذا اللغز المعلق خارج الطاقة البشرية حتى الآن، لا يتم إلا من خلال سبر الظاهرة نفسها دون إهمـــال كل ما يتقاطع معها فضائيا من الداخل أو من الخارج.

المراجع باللغة العربية

1. علم اللغة في القرن العشرين، جورج مونان ترجمة : د. نجيب غزاوي، وزارة التعليم العالي السورية.

2. أصول النحو العربي، د. محمد خير الحلواني جامعة تشـــرين اللاذقية ط : 1979.

3. محاضرات في الألسنية العامة، فرديناد دي سوسور. ترجمة : يوسف غازي، مجيد النصر، دار نعمان للثقافة، بيروت، لبنان.

4. اللهجات العربية القديمة، د. داود سلوم.

5. الأشباه والنظائر، الثعالبي، تحقيق : محمد المصـــــري ســـعد الدين، دار طباعة والنشر والتوزيع، ط1/1984، القاهرة.

6. المقدمة : ابن خلدون، مط، مصطفى محمد، القاهرة.

7. بوادر الحركة اللسانية الأولى عنـــد العـــرب، عبـــد الجليـــل مرتاض، مؤسسة الأشرف، ط1 /1988 بيروت لبنان.

8. العربية بين الطبع والتطبيع، عبد الجليـــل مرتـــاض ديـــوان المطبوعات الجامعية الجزائر، ط : 1993.

9. الكتاب، سيبويه، تحقيق عبد السلام محمـــد هـــارون الهيئـــة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.

10. طبقات الشعراء، محمد بن سلام الجمحي تحقيـــق محمـــود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة.

11. فقه اللغة (الصاجي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامـــها) أبو الحين أحمد بن فارس، تحقيق د، مصطفى الشويمي مؤسســة أ. بدران للطباعة والنشر، بيروت، 1963.

12. علم اللغة : دانييل مانيس، الموقف الأدبي عدد 135-136 عام 1982.

13. دراسات لغوية في ضوء الماركســية، ترجمــة د. ميشــال عاصي دار ابن خلدون، بيروت.

14. نظريات في اللغة، أنيس فريحة دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1/1973.

15. مدخل إلى اللسانيات، رونالد إيلوار. ترجمة، د. بدر الديــن القاسم، جامعة دمشق، ط : 1980.

16. الإيضاح في علل النــحو، الزجــاجي، ط : 1959، مطبعــة المدني، مصر.

17. الموشح المرزباني، تحقيق : محمد البجاوي، ط : 1965، دار النهضة، مصر.

18. الشعر والشعراء، ابن قتيبة، طبعة ليدن، 1902.

19. التحولات الجديدة للسانيات التاريخية. عبد الجليل مرتــاض دار هومة، الجزائر، 2001.

المراجع باللغة الأجنبية

1. Edward Sapir, *Le langage*, Petite Bibliothèque PAYOT, Paris.

2. Joseph Vendryes, *Le langage*, édition Albin Michel, 1979.

3. Osward Ducrot et Tzvetant Odorov, *Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage*, Edition du seuil, Paris.

4. Pierre Delattre, *Les sciences structurales : Pourquoi faire ?* Hachette.

5. Marina Yaguello, *Pour comprendre la linguistique*, édition du seuil, Paris, 1987.

6. Noam Chomsky, *Structure Syntaxique*, édition du seuil, Paris, 1969.

7. Charles Gordert, *Guide pratique de la grammaire française*, Hachette, 1978.

8. J.L – Chiss, J – Fillidlet, D. Mainguenau, *Initiation à la problématique structurelle*, Tome 2, Hachette, Paris.

9. Daniel Delas et Jacques Fillidlet, *Linguistique et poétique,* librairie Larousse, Paris.

10. Denis Girard, *Linguistique appliquée et didactique des langues*, édition Armand colin longman, 1972.

11. Jean-Baptiste Barinion et Genèvieve Dupont, *Comprendre la linguistique,* Marabout université,.

12. Bertil Malbe, *Les nouvelles tendances de la linguistique*, Presses universitaires de France, Paris, 1972.

13. William Labov, *Sociolinguistique*, les éditions de minuit, Paris

14. *Lire aujourd'hui* (C.L.G) Carol Sanders.

15. André Martinet, *La linguistique Synchronique*, Presses Universitaires de France, 1974.

16. *La Linguistique*, sous la direction de Frédéric François.

17. Nicolas Ruwet, *Théories Syntaxiques*, édition du seuil 1972.

18. Georges Mounin, *Clefs pour la linguistique générale*. édition Seghers, Paris, 1971.

19. *Introduction à la linguistique*, Galisson.

20. Jean Guenot, *Les langues vivantes*. édition Seghers, Paris, 1971.

21. Gérard Lecompte, *Grammaire de l'arabe*, Presses Universitaires de France, 1968.

22. Henri Fleisch, *Traité de philologie*, Imprimerie Catholique, Beyrouth, 1967.

فهرس

مقدمة 3

الباب الأول

وقائع سانتكسية في العربية القديمة

الفصل الأول : شفوية التراكيب السانتكسية في العربية..... 7

الفصل الثاني : بين السانتكس التقليدي والمعاصر 15

الفصل الثالث : في السانتكس العربي القديم..... 25

الباب الثاني

وجهات نظر لسانية في اللغة والاكتساب

الفصل الأول : طرائق ومراحل الاكتساب اللغوي..... 39

الفصل الثاني : الإكتساب اللغوي عند الفرد العربي

بين العفوية والنظريات اللسانية..... 55

الفصل الثالث : تنظيرات لسانية للغة الإنسانية 95